تاريخ الحملة إلى القدس

تأليف فولتشر أوف تشارترز

مقدمة فولتشر

إنه لمبهج للأحياء ونافع للأموات ، القراءة في الصحف المرقومة أخبار أعمال شجعان الرجال ، خاصة الذين يقاتلون في سبيل الرب ، أو أن تتناقلها ألسنة المؤمنين بكل خشوع ، لأنها محفوظة في حافظتهم ، كيف استجاب هؤلاء لأوامر الأنجيل ، وتخلو عن متاع الدنيا وهجروا أبائهم وأزواجهم وأموالهم وإن عظمت ، يدفعهم ذلك الى اتباع الرب وتكريس أنفسهم له (متى : ١٢ ـ ٢٩ ، ١٦ ـ ٢٤ . مرقس : ١٠ ٢ ، ٨ / ٣٤ .لوقا : ١٨ ـ ٢٩ ، ٩ ٢٣) . وأما الأموات الذين ماتو في سبيل الرب ، فإن جليل الفائدة تعود عليهم لدى تذكر الأحياء من المؤمنين سير سلفهم وأعمالهم الصالحة الورعة ، فذلك يدفعهم إلى الدعاء لموتاهم والترحم على أرواحهم ، ووهب الصدقات المصحوبة بالصلوات في سبيلهم ومحبة بهم سواء أعرفوهم أم لم يعرفوهم .

لذلك قمت بدافع طلب شديد الالحاح من بعض الأصدقاء ، فدونت بكل عناية وترتيب أخبار أعمال الفرنجة الرائعة ، حين استجابوا لأوامر الرب العلوية ، وانطلقوا مسلحين للقيام بالحج إلى القدس ، لعبادة المخلص ، ولقد حكيت بأسلوب بسيط متسم بالصدق ، مارأيت أنه جدير بالذكر ، ودونت بقدر ماتمكنت ماشاهدته بنفسي أثناء تلك الرحلة .

ومع أنني لا أمتلك الجراة على مقارنة أعمال الفرنجة السالفة الذكر بالأعمال العظيمة والانجازات الهامة للاسرائيليين والمكابيين وكثير من شعوب الله المختارة ، التي منحها معجزات كثيرة وخارقة ، أنا لااظن أن أعمال الفرنجة تقل شأنا عنها ، لأن المعجزات العجائبية الربانية تحققت مرارا بين صفوفهم ، وهذا

ماأسعى جاهدا لبعث ذكراه بالتدوين ، وكيف يتميز الاسرائيليون أو المكابيون عن الفرنجة ، فالحق أقول إننا شهدنا هؤلاء الفرنجة في الأرض عينها والبلاد ذاتها ، وهم في الغالب على مقربة منا ، أو سمعنا عنهم في أماكن نائية عنا ، وهم يقاسون من الضرب والصلب وتمزيق الأعضاء والموت بالنشاب أو بتقطيع الأوصال أو بأية واسطة أخرى توصلهم إلى الشهادة ، وذلك كله في سبيل المسيح وحبا به ، لم توقفهم التهديدات ولم تقعدهم الاغراءات ، بل لو كان سيف الجزار على مقربهم منا لما تحاشاه معظمنا لنيل الشهادة حبا في المسيح .

هناك آلاف مؤلفة ممن لاقى حتفه ونال الشهادة المباركة في هذه الرحلة ، من الذي عندما سيسمع بأفعال الرب هذه ـ مهما اشتدت قساوة قلبه ـ لن تجيش أعمق مشاعر الورع في نفسه ، ولايشرع بحمد الرب وتمجيده ؟ ليس هناك من لن يأخذه العجب عندما يرى كيف تمكنا ـ ونحن قلة ـ في قلب بلاد أعدائنا لا أن نقاوم فقط بل أن نعيش أيضا ؟ من الذي سمع قط بمثل هذا ، فلقد كان إلى جوارنا مصر والحبشة من جانب ، وبلاد العرب وسورية والجزيرة والعراق وفارس من جانب آخر ، إن هاهنا بحر عظيم فصلنا عن بلاد المسيحيين ، لقد وضعنا الرب بإرادته بين أيدي الجزارين غير أن ذراعه الجبارة قد حمتنا ودفعت عنا « طوبى للأمة التي الرب الهها » (مزامير : ٣٣ / ١٢) سوف أحكي فيما يلي تاريخ بداية هذا الفعيل ، وسأروي كيف كرست جميع شعوب الغرب أنفسها وسواعدها بلا حدود في سبيل انجاح هذه الحملة .

تنتهي هنا مقدمة فولتشر

الكتاب الأول

يبدأ هنا هذا الكتاب الأول من أعمال الفرنجة حجاج القدس

المجمع الذي عقد في كليرمونت

في السنة خمس وتسعين بعد الألف من تجسيد مولانا يسوع المسيح ، عندما كان هنري ـ المدعو بالامبراطور ـ يحكم في المانيا ، والملك فيليب في فرنسا ، تعاظمت الشرور في مختلف أنحاء أوروبا نتيجة لضعف الايمان ، وكان أوربان الثاني قد حكم في هذه الآونة في روما ، وكان رجلا رائعا في الذات والسمات ، مناضلا بجلد وحكمة في سبيل إعلاء مكانة الكنيسة المقدسة .

وكان قد رأى الناس جميعا من كهنة وعلمانيين قد داسوا الديانة المسيحية بأقدامهم ، واهملوا السلام أيما إهمال ، وتنازع أمراء البلاد أحدهم مع الآخر في حروب لم تعرف التوقف ، وشهد الناس يسلبون متاع الدنيا بعضهم من بعض ، ورأى كثيرا من السجناء يحتجزون بدون حق ، ويلقى بهم بكل وحشية في غياهب السجون ، حتى تدفع فديتهم العالية جدا ، أو يعانون من عذاب مثلث الشرور : الجوع والعطش والبرد إلى أن يلقوا حتفهم سرا ، ثم أبصر الأماكن المقدسة وقد دنست حرماتها والبيع والكنائس قد التهمتها النيران ، ولم يسلم أحد من البشر من الأذى ، وباتت الشؤون البشرية والربانية موضع سخرية واستخفاف .

وبعيد سماع أوربان أن الأتراك قد اجتاحوا المناطق الداخلية من الأراضي البيزنطية ، وأن المسيحيين قد وقعوا تحت نير شعب متوحش فتاك ، حركته مشاعر التقوى والورع ، فاجتاز ـ مدفوعا بمحبة الرب ـ الجبال ، وهبط إلى أراضي فرنسا ، ودعا إلى عقد مجمع مقدس في أوفيران في مدينة كليرمونت ، وتكون هذا

المجمع ـ الذي كان قد بعث الدعاة للتحضير له في جميع النواحي ـ من ثلاثمائة وعشرة أعضاء من الأساقفة والشمامسة .

والتأم الجمع في اليوم المحدد حول البابا أوربان ، فألقى فيهم خطابا بليغا مؤثرا تناول فيه الهدف الذي دعا من أجله ، وأخبر المجتمعين بصوت مفعم بالحزن والأسى عن معاناة الكنيسة ، والقى موعظة مؤثرة حول العواصف الهوجاء التي تجتاح العالم الذي انحطت فيه الديانة إلى الدرك الذي وصفناه من قبل .

وبكل خشوع حث الجميع على العمل في سبيل استرجاع قوة إيمانهم ، وان يبعثوا في أنفسهم العزم على التخلي عن إغواءات الشيطان وان يجهدوا في سبيل استرداد الكنيسة المقدسة لمركزها ومجدها التليد ، بعدما حط من شأنها الأشرار .

خطبة أوربان في المجمع

ايها الأخوة الأحبة ، ياعبيد الرب في هذه البلاد ، لقد قدمت إليكم أنا أوربان المتوج بمشيئة الرب بتاج التثليث ، الحبر الأعظم للعالم أجمع ، قدمت في هذه الظروف الصعبة والحرجة بمثابة نذير من العناية الربانية و « إنني لآمل أن يكون وكلاء سرائر الرب صالحين مؤمنين لايشوبهم رياء » (كورنثيوس : ٤ / ١ـ ٢)

لئن كان أحدكم مخادعا أو منجرفا بعيدا عن التعقل والاعتدال والعدل محاربا لكلمة الرب على الأرض فسأسعى ـ بعون من الرب ـ إلى تقويم اعوجاجه ، فالرب قد أقامكم وكلاء على بيته حتى إذا ماحان الوقت زودتموه بما تيسر من القوت ، وستنزل عليكم البركة المؤكدة إذا ماوجدكم رب الوكالة مؤمنين (متى : ٢٤ ـ ٤٥ ـ ٤٦)

إنكم تسمون رعاه ، فلا تتصرفوا كالأجراء ، كونوا رعاة

حقيقيين ، واحملوا عصيكم بأيديكم ولاتغفلوا ، واحرسوا القطيع الذي عهد به إليكم من جميع الجوانب (يوحنا : ١٠ / ١٢ ـ ١٣) أما إذا خطف الذئب خروفا نتيجة لاهمالكم وتقصيركم ، فإنكم لم تخسروا ما أعده الرب لكم فقط بل سيلقى بكم في جحيم الذين حقت عليهم اللعنات ، بعدما تقرعكم عصا الجلاد . وكما جاء في الكتاب المقدس « انتم ملح الأرض » (متى : ٥ / ١٣) ولكن إذا اخفقتم فكيف يتم التمليح ؟ اه كم من الرجال ينبغي أن يملحوا ؟ (متى : ٥ / ١٣ . مرقس : ٩ . لوقا : ١٤ / ٣٤) من المتوجب عليكم أن تملحوا بملح حكمتكم المزيلة للفساد ، الجهلة الذين يتنافسون على ملذات هذا العالم ، وإلا فإنهم سيتحولون إلى حجارة نتيجة لطغيانهم ، وسيجدهم الرب عندما يخاطبهم مفتقرين إلى ملح الحكمة .

لأنه إن وجد فيكم دودا ـ أي آثام ـ بسبب قعودكم عن القيام بواجباتكم ، فسيأمر بالحال بطرحكم مرذولين في قعر الجحيم (مرقس : ٩ / ٤٨) وحيث أنكم لن تستطيعوا تعويض هذه الخسارة له ، إنه سيحكم عليكم باللعنة وسيبعدكم بالحال من حضرته ويحرمكم من رعايته . غير أن الذي يملح يجب أن يكون حكيما بعيد النظر متواضعا ، عالما محبا للسلام ، يفتش عن الحقيقة ، تقيا طاهرا ومنصفا عادلا ، إذ كيف يجعل الجاهل غيره عالما ، أو المتفاخر غيره متواضعا ، والمدنس غيره نقيا ؟ إذا كان المرء يمقت السلام فكيف يمكنه إحقاق السلام ؟ وإذا ماتلوثت يد إنسان فكيف يمكنه تطهير ماتلوث بدنس آخر ؟ ولقد ورد في الكتاب « إن كان أعمى يقود أعمى يسقطان معا في هوة » (لوقا : ٦ / ٣٩)

وبناء عليه أصلحوا ذواتكم أولا حتى لاتستحقوا الملامة ، وإذا ما أصلحتم من هم تحت رعايتكم ، وإذا وددتم حقا أن تكونوا أحباء الرب ، فاعملوا متطوعين مايرضيه .

اتمنى عليكم بشكل خاص رعاية شؤون الكنيسة والمحـافظة على نواميسها حتى لاتضرب هرطقات المتاجره بالدين جـذورها بينكم ، وكونوا على يقين أن البـاعة والشـارين سـيلحقهم سـوط الرب (متى : ٢١ / ١٢ مـرقس : ١١ / ١٥ . لوقـا : ١٩ / ٤٥ ، يوحنا : ٢ / ١٥) ولسوف يجرون بكل تعاسة عبر بـوابات ضـيقة إلى الهـلاك الكلي (لوقـا : ١٣ / ٢٤ . متـى : ٧ / ١٣) عليكم صيانة حرية الكنيسة بجميع مراتبها وحمايتها من القوى الدنيوية ، وسددوا العشور من خيرات الأرض جميعا إلى الرب بكل أمانة دون أن تباع او تحتجز .

ولتنزل اللعنة على كل من يختطف اسقفا ، ولتحق اللعنة على كل من يختطف كاهنا أو راهبا او راهبة ، أو احدا من خدامهم أو مـن الحجاج أو التجار ، أو يمسهم بالأذى ، وليلحق الطـرد والحـرمان من الكنيسة كل اللصوص وحارقي البيوت والذين يمـدون إليهـم يد العون .

ولقد قال غريغوري : « علينا أن نقوم بكل خصوصيه مدى شـدة العقوبة التي سنعاقب فيها من يسرق الآخرين ، وإذا مـاحقت عليه اللعنة في الجحيم فلأنه كان سخيا بما لم تملك يداه » وهذا ما حصل للرجـل الغني الذي ورد ذكره في الكتـاب المقـدس (لوقـا : ١٦ / ١٩ ـ ٣٠) فهو لم يعذب بسبب سرقته لأموال الآخرين فقط بل لأنه أساء أيضا استعمال الثروة بعدما حصل عليها .

لابد انكم يا اخوتي الأحباء قـد شـهدتم عالمكم وقـد انتشر فيه الشر وعاث به فسـادا منذ أمـد بعيد ، ولاسـيما في بعض نواحـي مقاطعتكم فهذا الذي قيل لكم وقيل لنا ، ولعل من اسباب تقصـيركم في إحقاق الحق وإزالة الظلم انه لايكاد أحد منكم يملك الجـرأة على السفر في الطرقات مؤملا السلامة خوفا من السـلب على يد قـطاع الطرق في النهار ، أو اللصـوص في الليل ، فهـو يعـرض للسـلب والمخاطر سواء اكان داخل العمران او خارجه .

لهذا كله يتوجب عليكم تجديد الهدنة المعروفة باسم « هدنة الرب» التي اقرها الآباء المقدسون منذ زمن بعيد ، وإنني ارغب إليكم بكل إخلاص أن تراعوا الأخذ بها في كل أبرشية من الأبرشيات ، لابل أقول إذا ماخرق انسان ـ لكبر في نفسه أو لطمع ـ شروط هذه الهدنة عامدا متعمدا فليحق عليه الحرمان بقوة السلطة المخولة لي من الرب ، وبإرادة هذا المجمع .

ماحرض به البابا بشأن الحج إلى القدس :

وبعدما جرى الوفاق على هذه الأمور جميعا ، نهض جميع الحضور من اكليروس وعلمانيين وقدموا بلا تكلف الشكر للرب على ماتفوه به البابا أوربان ، وعاهدوه مخلصين بالتقيد بكل مايرسمه ، بيد أن البابا ، بادر إلى الاستطراد قائلا : إن محنة لاتقل عن الذي ذكرت بل تزيد ، ذلك انها بالحري اشد المحن واقساها على الاطلاق ، هي التي نزلت بالمسيحية في طرف اخر من العالم .

وتابع يقول : بما انكم ياأبناء الرب قد وعدتموه بحفظ السلام فيما بينكم ، وان تكونوا أعظم اخلاصا مما مضى في الحفاظ على حقوق الكنيسة ، يتوجب عليكم ، وقد قوم الرب اعوجاجكم ، القيام بواجب ملح لكم وللرب ، يمكنكم خلال ادائه اظهار مدى صدق طويتكم عليكم وبكل سرعة ان تأخذوا المساعدات الى إخوانكم في المشرق ، التي طالما وعدتموهم بها ، انهم بحاجة ملحة لها : ان العرب والتركمان قد حاربوهم ، وتوغلوا في الأراضي الرومانية (البيزنطية) عميقا حتى البوسفور ، وهم يتوغلون الآن أعمق من ذي قبل في اراضي هؤلاء المسيحيين ، لقد ابادوهم سبع مرات في المعركة ، فقتلوا منهم من قتلوا ، واخذوا عددا كبيرا من الأسرى ودمروا الكنائس ، واجتاحوا اراضي المملكة ، واذا لم تتصدوا لهم الآن ، فانهم سيمدون سلطانهم اعمق وسيذشرونه فوق العبيد المخلصين للرب .

لهذا السبب أتوجه اليكم بالرجاء والتحريض ، وانه ليس أنا الذي أتوجه اليكم ويحرضكم ، بل الرب على لساني أنا نائب المسيح ، أتوجه الى الفقير منكم والغني ، وأسألكم أن تتسارعوا نحو طرد أبناء الشر هؤلاء من المناطق المقطونة من قبل اخواننا ، وأن تقدموا المساعدة في وقتها الى عباد المسيح ، انني اخاطب جميع هؤلاء الحضور ، وأعلن الشيء نفسه الى جميع الغياب ، ولكن اعلموا أن المسيح هو الذي يخاطبكم ويصدر الأوامر : ان جميع الذين يذهبون الى هناك ويفقدون حياتهم في البر أو البحر اثناء الرحلة أو خلال المعركة ضد الكفار سيتم غفران ذنوبهم بالحال ، وانني أمنح هذا من خلال السلطة المضفاة علي من قبل الرب .

يا للخزي ويا للعار اذا ماانتصر علينا هذا الجنس المتسم بمثل هذه الدناءة والحقارة ، اذا ما انتصر هذا الجنس الذي تستعبده الشياطين والعفاريت على شعب أنعم الرب القدير عليه وتباهى باسم المسيح ، اه كم من المعائب ستوسمون بها ـ حتى من الرب نفسه ـ اذا لم تقوموا بتقديم العون الى الذين يعدون مثلكم في الدين المسيحي .

وتابع البابا يقول : انه يتوجب على الذين اعتادوا ـ حتى الآن ـ على الاقتتال مقترفين للاثم ، منغمسين في صراع ضد المؤمنين ، أن يتوجهوا للكفاح ضد الكفار ، وأن يحققوا النصر عليهم في حرب كان من المتوجب مباشرتها منذ أمد طويل ، على الذين طال انشغالهم باللصوصية أن يتحولوا ليكونوا جندا للمسيح ، وليقم الذين حاربوا في الماضي ضد الهم واخوانهم بالحرب الآن ضد البرابرة ، دع الذين كانوا يكترون لقاء دريهمات من الفضة (متى : ٢٧،٣) يحصلون الآن على ثواب سرمدي ، ودع الذين كانوا ينهكون انفسهم ويدمرون أجسادهم وارواحهم يكافحون الآن لنيل ثواب وأجر فيه تعويض مضاعف ، وبعد ماذا يمكن أن أقول أكثر من هذا ؟ سيقف الفقراء والتعساء أولا على طرف

وسيقف الأغنياء حقا على طرف آخر ، هناك وقف أعداء الرب ، وهنا وقف اعوانه .

لاتدعوا حائلا يحول دون الذين يريدون الذهاب ، دعوهم يعدون أمورهم ويجمعون أموالهم ، وعندما ينقشع الشتاء ويحل فصل الربيع ، عليهم أن ينطلقوا بقلوب عامرة بالايمان ، وليأخذوا الطريق تحت أشراف الرب وقيادته .

اسقف لى بوي والوقائع التي تلت

بعدما تفوه البابا بهذه الكلمات ، ثارت حمية الحضور جميعا ، ووعد العديد منهم بأن يذهبوا على الفور ، وأن يحثوا من لم يشهد الاجتماع أن يفعل الشيء نفسه ، وكان ذلك اعتقادا منهم أن لاشيء يفوق هذه المسألة أهمية ، وكان بين الحضور اسقف لى بوي واسمه أدهمر ، وهو الذي غدا فيما بعد القائد الروحي الذي قاد بحكمته وحسن تدبيره الجيش برمته والهمه بكل حزم كيف يؤدي مهمته .

وبعدما أقر المجمع هذه الأمور التي وصفنا ، وتمت الموافقة عليها بالاجماع ، منحت تبريكات الغفران ، وارفض الاجتماع ، وماأن عاد الجميع الى مساكنهم حتى أخبروا الذين لم يعلموا بكل ماجرى ، وإثر انتشار قرارات المجمع في جميع أطراف المقاطعات ، وافق الجميع وأعطوا مواثيقهم بالحفاظ على السلام ، والتقيد بشروط « هدنة الرب ».

وفي الحقيقة ماأن سمع كثير من الناس من مختلف المراتب بما حدث وبغفران الذنوب حتى بادروا الى اعطاء مواثيقهم والاقسام على أن ينطلقوا بأرواح طاهرة سواء أمروا بالذهاب أم لم يؤمروا .

اواه كم اسعد نفوسنا واثلج صدورنا رؤية الصلبان المصنعة من الحرير او من السندس المذهب ، او قماش فاخر آخر ، وقد خاطها الحجاج من الفرسان والعامة على اكتاف اردیتهم ، فلقد فعلوا هذا كله طاعة لأوامر البابا اوربان ساعة اداثهم القسم بالذهاب ، ولقد كان جديرا أن يتولى شعار الرب ورمز انتصاره حماية جنده وتثبيت هوية الذين كانوا يعدون العدة في سبيل الدفاع عن مجده ، وبما انهم حلوا نفوسهم بشعار دينهم هذا ، فانهم نالوا في النهاية من الرمز ذاته الحقيقة بحد ذاتها ، لقد حملوا الشارة الخارجية حتى يدركوا في النهاية الحقيقة الداخلية .

ومن الجلي أن النوايا الطيبة تقود الى انجاز الأعمال الطيبة ، وأن العمل الطيب يؤدي الى خلاص الروح ، وبناء عليه ان افضل مايقوم به المرء هو أن يدخر ذخيرة له من الأعمال الحسنة ، حتى يتأمن له من خلالها غذاء للروح ، فليتوكل امرىء أن يعمل صالحا حتى يحقق عملا أصلح ، وفي النهاية سيحصل ـ اذا كان جديرا ـ على افضل مايكون ، وهذا مالا تنقص قيمته الى الأبد .

شعر

وبهذه الوساطة شرع أوربان الرجل العاقل المبجل

بعد التأمل ، بعمل أشرقت منه الدنيا .

لقد أعاد احلال السلام ، ووطد من جديد حقوق الكنيسة كسالف عهدها ، كما وبذل جهودا مضنية لطرد الكفار من بلاد المسيحيين ، وبما أنه ناضل بلا هوادة في سبيل تمجيد كل شيء مصدره الرب ، فقد دان له الجميع بالطاعة وقبلوا سلطته الأبوية .

النزاع بين البابا أوربان وجيلبرت :

أقام الشيطان ، الذي يسعى دوما وبلا انقطاع لتدمير الانسان ، ويطوف في الأرض كالسبع المفترس الباحث عن فريسة يلتهمها (بطرس : أ ـ ٥ ٨) أقام ليشيع الفوضى بين الناس ، منافسا للبابا أوربان اسمه جيلبرت ، وقد بدا هذا الرجل ، مدفوعا بالرعونة ، ومدعوما بصفاقة امبراطور بافاريا سالف الذكر ، باغتصاب الكرسي البابوي ، وبينما تمسك غريغوري المعروف باسم هيلديبراند ، وهو البابا الذي تقدم على أوربان بمنصبه البابوي في الكنيسة ، منعه جيلبرت نفسه من الاقتراب من كنيسة القديس بطرس .

وبعد ما تمادى جيلبرت في تعنته ، ارتأى اتقياء الناس عدم الاعتراف به ، وبعد وفاة هيلدبراند جرى انتخاب أوربان بصورة شرعية ، وتم ترسيمه من قبل الكرادلة ، وقد مال القسط الأكبر من الناس وأكثرهم ورعا الى طاعته .

وأفلح جيلبرت ، بدعم من الامبراطور السالف الذكر وحماس جل أهل روما ، في ابعاد أوربان عن كنيسة القديس بطرس لمدة طويلة ، وطاف أوربان خلال الفترة التي أبعد فيها عن كنيسته في انحاء البلاد ساعيا الى تقريب القلوب من الرب وتصحيح اعوجاج ذوي الغواية .

وبحكم احتلاله للمركز الرئيس في الكنيسة ، ازدادت غطرسة جيلبرت ، بيد انه أبدى تهاونا تجاه أهل الخطيئة ، ومارس ومعه جماعته ظلما وظائف منصب البابوية ، ولم يعبأ بأعمال أوربان وسعى الى ابطال فعاليتها .

غير أن أوربان قد تمكن في السنة نفسها التي مر بها الفرنجة في

روما في طريقهم الى القدس ، من الاستيلاء على السلطة الكنسية بفضل عون تلقاه من سيدة فاضلة اسمها ماتيلدا ، كانت في تلك الآونة واسعة النفوذ في منطقة روما التي انحدرت منها ، وكانت جيلبرت وقتذاك في المانيا ، وهكذا صار لروما بابوان،الأمر الذي أدى الى حيرة الناس بشأن من يطيعون منهما ، والى من يعودون ومن يمنح الغفران الى مرضاهم ، وفضل بعضهم هذا واثر آخرون ذاك .

وكان جليا لذوي العقول من الرجال أن اوربان كان هو الأفضل ، وفي الحقيقة أن الأفضل هو الذي يضبط نفسه ويتحكم بعواطفه ويضبطها كما لو كانت عدوة له .

وكان جيلبرت بحكم كونه أسقفا لمدينة رافينا ثريا جدا ، وكان يختال في مظاهر البذخ والترف ، ومن المثير للدهشة أن هذه الثروات لم تشف غليله ، وبناء عليه هل يعقل أن يعد نموذجا للحياة المثلى الذي يعشق المظاهر ويتطاول بكل قحة على اغتصاب عرش سلطة الرب ، وان هذا المنصب لايجوز حيازته بالقوة بل ينبغي تقبله بكل تواضع وخشوع .

وليس من المدهش أن أصيب العالم بأسره بالقلق والحيرة ، فعندما تضطرب أمور كنيسة روما ، التي هي مصدر التقويم لجميع المسيحيين ، سيصيب المرض المعدي الساري في أوصالها الرئيسية جميع الأعضاء التابعين لها ، وسيزداد ضعفهم بسبب معاناتهم من أجلها .

أجل الحق يقال ان هذه الكنيسة هي أمنا ، التي تربينا في أحضانها ونشأنا على مثلها واعتدنا ، واشتد عودنا بمشورتها ، أجل هذه هي الكنيسة نفسها قد ضربت بكل قحة من قبل جيلبرت الأرعن المتكبر ، ومعروف انه عندما يصاب الرأس تتداعى بقية الأعضاء في الحال .

شعر :

عندما يصاب الراس
يصيب الأذى بقية الأعضاء .

وعندما مرض الراس على هذه الصورة ، ازداد الضعف في الأطراف نتيجة الآلام التي انتشرت في جميع ارجاء اوربا ، حيث داس الناس ، سواء أكانوا اقوياء أم ضعفاء ، وسيان أكانوا داخل الكنيسة أم خارجها ، بأقدامهم على الفضيلة والسلام والدين ، وبات من المتوجب وضع حد لهذه الشرور جميعا ، وتدبرت الخطة التي احكمها البابا اوربان ان يتحول الصراع والقتال ـ الذي دار حتى الآن بين المسيحيين ـ فيوجه ضد الكفار .

والآن سأوجه قلمي نحو تدوين التاريخ بغية اخبار الذين لم يعلموا بما حدث لرحلة القاصدين الى القدس ، وماجرى لهم من وقائع وسأبين كيف توجت خططهم واعمالهم بالنجاح بعون الرب ، فلقد جمعت انا فولتشر اوف تشارترز ، الذي سافرت مع الحجاج ، بكل دقة وعناية فائقة ، ذلك كله في ذاكرتي ، من اجل الأجيال المقبلة ، ودونته تماما كما شهدته بنفسي .

اوقات انطلاق المسيحيين واسماء قادة الحجاج

شرع في شهر اذار من عام ١٠٩٦ بعيد عقد المجمع الذي دعا اليه البابا اوربان الثاني في تشرين الثاني حسبما ذكرنا في اوفيرن كليرمونت ، بعض الذين بادروا الى تجهيز انفسهم واكملوا اعداداتهم ، شرعوا في الرحلة المباركة ، وسار اثرهم اخرون في نيسان او ايار ، وفي حزيران او تموز او حتى في اب وايلول وتشرين

أول كل حسب مقدرته على توفير الموارد الكافية لسداد نفقات التكاليف .

ومن نعم الرب أن الحبوب والنبيذ وجدت في ذلك العام بكميات وافرة جدا في جميع البلدان ، وبذلك توفر الخبز خلال الرحلة للذين حملوا صلبانهم واختاروا اتباع طريق الرب .

ولما كان من المفيد الاتيان على ذكر أسماء الحجاج في تلك الرحلة فانني أذكر : هيوج الكبير أخو فيليب ملك فرنسا ، فهو كان أول الأبطال الذين عبروا البحر ، فقد نزل هيوج مع رجاله في ديرازو ، وهي مدينة بلغارية ، غير أنه اندفع بكل طيش على رأس قوة صغيرة ، فاعتقله سكان المنطقة وحملوه الى امبراطور القسطنطينية حيث بقي فترة من الزمن محروما من حريته .

وبعده بوهيموند أبوليا بن روبرت غويسكارد ، من شعب النورمان ، الذي سار بجيشه على الطريق نفسه .

وبعده غودفري ، دوق اللورين ، الذي سافر عبر هنغاريا على رأس قوة أكبر .

وبعده ريموند كونت بروفانسال ومعه القوط والكاسكون ثم أدهمر أسقف لي بوي ، وزحف هؤلاء عبر دلماشيا .

وكان أول من عبر هنغاريا المدعو بطرس الناسك ، وبعدما جمع حوله حشدا كبيرا من الرجالة ، وعددا ضئيلا من الفرسان ، وأصبح بعد ذلك وولتر المعدم ، وكان جنديا قديرا ، قائدا لهذه المجموعة ، وقد لاقى وولتر هذا منيته مع عدد كبير من أعوانه بين نيقوميديا ونيقية على أيدي التركمان .

وبدأ في شهر تشرين الأول روبرت كونت نورماندي ، ابن وليم

الفاتح ، ملك انكلترا ، رحلته بعدما حشد جيشا كبيرا من النورمان والانكليز والبريطانيين ، وقد مضى معه ستيفن كونت بلوا الذي كان زوج اخته ، وروبرت كونت الأراضي المنخفضة ، ومعه حشد من النبلاء .

وهكذا تقاطرت هذه الحشود العملاقة من جميع البلدان الغربية ، وتعاظم حجم الجيش يوما اثر يوم ، وتضخم أثناء زحفه من شراذم صغيرة قليلة العدد الى مجموعة من الجيوش ، وحوى أعدادا لاتحصى من بلاد متعددة تنطق بلغات شتى ، انما لم تجتمع في جيش واحد الا مقابل مدينة نيقية .

ثم ما الذي أزيد فأقوله ؟ لقد زحفت الجزر في البحار والممالك في الأرض حتى أيقن الانسان أن نبوءة داود قد تحققت بقوله : « كل الأمم الذين صنعتهم يأتون ويسجدون أمامك يارب » (مزامير : ٨٥ ٩) وحسبما قال الذين أتوا بعد ذلك بحق :« لنسجد عند موطىء قدميه » (مزامير : ٦/١٣) ولقد قرأنا كثيرا عن هذه الرحلة في كلام الأنبياء ، ولن نكرر ذلك هنا ثانية حتى لانسبب الملل .

كم أصابهم من أسى ، وكم أجهشوا في البكاء وندبوا وانتحبوا ، عندما فارقوا رفاقهم وأزواجهم الأعزة عليهم وأولادهم وممتلكاتهم مهما كثرت ، وآباءهم وأمهاتهم واخوانهم وذويهم وآلهم الآخرين .

ومهما تدفقت دموع مودعيهم أمامهم ، فان احدا منهم لم يتقاعس عن الذهاب ، لأنهم تركوا ، في سبيل محبة الرب ، مايملكون ، وكلهم ثقة وقناعة سينالون مائة ضعف مما وعد الرب لمحبيه .

(متى : ١٩ ٢٩ .مرقس : ١٠ ٢٩ ـ ٣٠ .لوقا : ٢٩/١ ـ ٣٠) .

ولقد أخبر الزوج زوجته عن موعد عودته ، مؤكدا لهـا ، أنه اذا ماكتب الرب له السلامة فسيعود اليها ، ثم طلب من الرب أن يعتني بها ، وقبلها مطولا ، ووعدها من خلال دموعه أنه سـيعود ولكنهـا لخوفها من أنه لن تقع عيناها عليه ثانية ، أغمـي عليهـا ، وهـي تترحم على من تحـب ، وتندب فقـدانه كمـا لو أنه فـارق الحياة فعلا ، ثم انه غادر ، كمـن ليس في قلبـه شـفقة ـ مـع أنه كان شفوقا ـ وكمن لم يتحرك لدموع زوجته ولحـزن محبيه ـ مـع أن قلبه قد امتلأ حزنا ـ لقد غادر بكل عزم وحزم . ثم ماذا نسـتطيع أن نقول أكثر مما قلناه ؟ بقدر من الرب كان هذا ، وهـو عجيب في أعيننا (متى : ٢/٤٢) .

رحلة كونت النورمان والذي جرى في روما خلال وجودهم هناك :

ثم عبرنا نحن الفرنجة الغربيين غاليا ، وسافرنا عبر ايطاليا الى مدينة لوكا الشهيرة ، وعلى مقـربة منهـا التقينا بـالبابا أوربـان الثاني ، وقد تحادث معه روبرت كونت نورماندي وستيفن كونت بلوا وكذلك فعل آخرون منا من الذين رغبوا في محادثته ، وبعد أن منحنا بركاته سرنا الى روما بحبور وغبطة .

وعندما دخلنا البازيليكا في كنيسة القديس بطرس ، وجـدنا رجـال جيلبرت ، ذلك البابا الأحمق يقفون أمام المذبـح ، وقـد تخـاطفوا باجرام ـ وسيوفهم مشرعة ـ الهبات المقدمة على المذبح ، وسعى بعضهم وركض في ردهات الكنيسة وأخذوا يرموننا بالحجارة ونحن راكعون في الصلاة ، ذلك أنهم لم يروا أحـدا مخلصـا لأوربـان إلا وأزمعوا على قتله في الحال.

وكان رجال البابا أوربان يحـرسونه في واحـد مـن أبـراج البازيليكا ، بكل عزيمة واصرار على مقاومة أعدائه ، وقد أصـابنا

الأسى عندما رأينا الآثام التي تقترف هناك ، ومع هذا تمنينا في قرارة نفوسنا ألا يقع حادث إلا انتقاما للرب ، وخلال هذا رجع العديد من الذين حضروا معنا الى بيوتهم وقد أضعفهم الخوف والجبن.

أما نحن فقد واصلنا سفرنا عبر أواسط كمبانيا ووصلنا الى باري ، وهي مدينة وافرة الثراء على شاطىء البحر ، وصلينا هناك في كنيسة القديس نيقولا للرب بكل حرارة ، ثم توجهنا الى المرسى على أمل الجواز في الحال ، غير أن البحارة اعترضوا لاقتراب فصل الشتاء مما قد يعرضنا للمخاطر ، فاضطر روبرت كونت نورماندي الى الانسحاب الى كالبريا حيث أمضى الشتاء ، أما روبرت كونت الأراضي المنخفضة فقد عبر في الحال.

ووجد في تلك الآونة عدد كبير من العامة أنفسهم بلا معين ، وخافوا من الحاجة في المستقبل ، فباعوا سلاحهم وخلعوا ثياب الحج ، ورجعوا بخسة ونذالة الى ديارهم ، لذلك لحقهم ازدراء الرب ، وحل بهم الخزي والعار .

غرق الحجاج وظهور المعجزة الربانية:

ومع عودة ربيع عام ١٠٩٧ ، عاد في اذار كونت نورماندي وكونت ستيفن بلوا مع اتباعها نحو شاطىء البحر ، ذلك أن ستيفن كان أيضا ينتظر الوقت الموائم للابحار ، وعندما تم تجهيز الاسطول في مطلع نيسان الذي وافق يوم الصعود (٥ ــ نيسان) ركبوا البحر في ميناء برنديزي.

« يا لعمق غنى الرب وحكمته وعلمه ، ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء» (رومية: ١١/ ٣٣) إذ أننا شهدنا واحدة من السفن الكثيرة القريبة من الشاطىء وقد انشطرت من وسطها

الى نصفين دون سبب واضح وابتلعها اليم ، فهلك بذلك اربعمائة شخص من الجنسين ، وصعدت أرواحهم الى عليين مصحوبة بصلوات الغفران الى الرب.

وبعدما جمع المحيطون بهم ما استطاعوا من جثث الغرقى ، وجدوا ان الصلبان قد حفرت فعليا في جلد بعضهم فيما بين الكتفين ، ولكم هو رائع أن شعار الفداء هذا الذي وضعوه فوق ملابسهم وهم أحياء ، سيظل بارادة الرب رمزا لايمان هؤلاء الذين ضحوا بنفوسهم في سبيله ، زد على هذا كم كان موائما ان اظهرت هذ المعجزة لكل من شاهدها أن الأموات قد حصلوا برحمة من الرب ـ على الأمن والسلام في الحياة السرمدية ، وهكذا تحققت نبوءة الكتاب المقدس بدون ادنى لبس و « العادلون وإن ماتوا قبل اوانهم سيكونون بأمان ».

وكان قد نجا عدد ضئيل من الركاب بعدما صارعوا الموت ، وابتلعت الأمواج خيولهم وبغالهم وتم فقدان الكثير من الأموال ، وقد روعنا مشهد هذه الكارثة الى درجة أن بعض ضعاف النفوس ممن لم يكونوا قد صعدوا الى السفن بعد ، انتكسوا على أعقابهم ، وتخلوا عن الحج قائلين إنهم لن يثقوا بهذا البحر الغادر ويؤمنوه على أرواحهم أبدا.

أما نحن فقد اقلعنا في البحر ـ وكلنا ثقة واعتماد على الرب القدير ـ تدفع بأشرعتنا ريح طيبة ، وتزعق من حولنا ابواق عديدة ، ومع حلول اليوم الرابع وصلنا الى البر قرب مدينة ديرازو ، أي على بعد عشرة أميال كما يخيل الي ، ودخل اسطولنا في مرسيين ، ونزلنا الى اليابسة والغبطة تملأ نفوسنا ، وعبرنا من أمام المدينة المذكورة ثم سرنا عبر اراضي البلغار وسط جبال شاهقة وجروف مهجورة حتى وصلنا الى نهر يتدفق بسرعة يدعوه سكان المنطقة باسم نهر الشيطان ، وكانت تسمية محقة إذ شاهدنا العديد من العامة يغرقون في هذا النهر بعدما املوا في أن يخوضوه خطوة

خطوة ، غير أن التيار جرفهم بقوة هائلة ، ولم يستطع أحد من الشهود انقاذ أيا منهم ، ولقد نرفنا عليهم دموع الشفقة الوافرة ، ولولا أن الفرسان قدموا العون للرجالة فأجازوهم على ظهور خيولهم المدربة لهلك العدد الأكبر منهم ، ثم عسكر نا على مقربة من الشاطىء ، وامضينا ليلتنا هناك تحيط بنا جبال شاهقة خالية من السكان.

مع اشراقة الصباح صدحت الأبواق ، فشرعنا نتسلق جبل باجولاتس (باجورا) وبعدما تسلقناه مررنا بمدن: لوكريسا وموناستير ولوفيانت (اديسا) وستيللالا ، ثم وصلنا الى نهر داريوس (فاردار) ومع أن هذا النهر يقطع عادة بالقوارب غير أننا خضناه بعون الرب وجزناه بدون قوارب ، وعسكرنا في اليوم التالي امام مدينة سالونيك ، وهي مدينة تزخر بالسلع من كل جنس.

وبعدما توقفنا لمدة اربعة أيام عبرنا بلاد مقدونية عبر وادي فيلبة ثم عبرنا نكريسوبولس و كريستوبولسن ،بريتوريا ،و تيسنوبوالس ،و ماكرا ،و ترايانوبولس ، و نيبابولس ، و بانا دوكس ،و رودوستو ،و هرقلية ، و سلامبريا ، و ناتورا وصولا الى القطنطينية ، التي عسكرنا أمامها و استرحنا لمدة أربعة عشر يوما .

ولم نحاول الدخول الى االمدينة ، لعدم موافقة الامبراطور (لأنه كان يخشى أن نتآمر عليه ونسبب له االأضرار) لذلك توجب علينا شراء حاجياتنا اليومية من خارج الأسوار ، وقد أحضر الأهلون هذه السلع بأمر من الامبراطور ، ولم يسمح لنا بدخول المدينة إلا بمعدل خمسة أشخاص أو ستة في كل ساعة ، وهكذا في الوقت الذي كان بعضنا يغادر المدينة كان أخرون يدخلونها للصلاة في كنائسها.

من القسطنطينية الى نيقية:

كم هي جميلة مدينة القسطنطينية لا بل كم هي رائعة ، كم فيها من كنيسة ودار بنيت من قبل أمهر الصناع ، إن ما يراه الانسان في شوارعها العريضة لا بل في أزقتها الضيقة ، من أعاجيب شيء لا يحصى ، ومن المضني أن يحصى الانسان الثروات التي فيها من الذهب والفضة ، والثياب بجميع اصنافها والآثار المقدسة ، فالتجار يجلبون اليها من أسفارهم العديدة ، كل ما يحتاج إليه بني البشر ، وبتقديري أن مالا يقل عن عشرين الف خصي يعيشون فيها على الدوام.

وبعدما استجمينا بما فيه الكفاية ، عقد قادتنا ـ بعد التداول ـ اتفاقية مع الامبراطور ، وأعطوا أيمانهم عليها ، وكان غودفري وبوهيموند اللذان تقدمانا الى هنا ، قد وافقا عليها ، غير أن الكونت ريموند رفض المصادقة عليها ، مع أن كونت الأراضي المنخفضة صادق مثلما فعل الآخرون.

وكان من المحتم علينا إقامة علاقات ودية مع الامبراطور ، ذلك أنه بدون مساعدته ومشورته لم نكن قادرين على القيام بهذه الرحلة ، مثلنا في ذلك مثل الذين سيقدمون بعدنا عبر هذا الطريق ، وقد منح الامبراطور الى الأمراء هبات كثيرة ، وخلع عليهم أردية الحرير حتى ارضاهم وأعطاهم الخيول والأموال التي احتاجوا اليها لأداء هذه الرحلة.

وعبرنا بعد ذلك بحر البوسفور ، وخففنا الخطى نحو مدينة نيقية ، حيث كان كل من الأمير بوهيموند ، والدوق غودفري ، والكونت ريموند ، وكونت الأراضي المنخفضة قد شرعوا بحصارها منذ شهر أيار ، وكانت انذاك تحت حكم الأتراك ، وهم شعب شجاع ، جاء من الشرق ، ماهر في استخدام القوس

والنشاب ، وكان هذا الشعب قد عبر الفرات قبل خمسين سنة من بلاد فارس ، واستولى على الأراضي البيزنطية حتى نيقوميديا.

وا أسفاه كم من رأس مقطوعة رأيناها وكم هي كثيرة عظام الهالكين التي وجدناها مطروحة في البراري قرب البحر حول نيقوميديا ، فقد كان الأتراك في ذلك العام (١٠٩٦) قد أبادوا قومنا الذين لم يعرفوا القوس ولم يختبروا كيفية استخدامه ، وقد هز هذا المشهد مشاعرنا ، فذرفنا الدموع الغزيرة.

حصار نيقية وسقوطها:

عندما سمع الذين كانوا يتولون حصار نيقية نبأ وصول قائدنا كونت نورماندي ، وستيفن بلوا ، قدموا مسرورين لمقابلتنا ، ورافقونا الى موقع في جنوبي المدينة حيث أقمنا معسكرنا.

وكان التركمان قد حشدوا فيما مضى قواتهم ، وزحفوا على أمل بصد المهاجمين واستدراجهم بعيدا عن المدينة ، او أن يدافعوا عنها بجندهم بفاعلية أعظم ، غير أن رجالنا ردوهم على أعقابهم وهزموهم بكل ضراوة ، وقتلوا أكثر من مائتين منهم ، وعندما رأى هؤلاء أن الفرنجة أشداء متمرسون في فنون القتال تراجعوا مهرولين الى داخل الأناضول يتحينون الفرصة للانقضاض ثانية.

لقد كنا آخر من وصل للمشاركة في الحصار في الأسبوع الأول من تموز (٣ ـ تموز ١٠٩٧) وكونت في ذلك الوقت الجيوش العديدة التي احتشدت هناك جيشا واحدا ، قدر تعداده العارفون بأنه حوى ستمائة الف رجل قادر على القتال ، كان من بينهم مائة الف دارع يحملون أيضا الترسة ويضعون على رؤوسهم الخوذ ، وذلك بالاضافة الى الذين كانوا غير مسلحين أي رجال الدين والنساء والأطفال.

ثم ماذا بعد هذا؟لو أن جميع الذين غادروا ديارهم للمشاركة في هذه الحملة المقدسة احتشدوا في ذلك المكان لجاوز تعدادهم ستة ملايين محارب ، وهذا ما لاشك فيه ، غير أن بعضهم رجع من روما ، وبعضهم الآخر من ابوليا ، ثم من هنغاريا ودلماشيا ، لأنهم لم يتحملوا المشاق ، وقتل في أماكن عديدة أعداد كبيرة قدرت بالآلاف ، كما مات عدد كبير من المرضى الذين قدموا معنا ، هكذا امتلأت الطرقات والحقول بقبور الحجاج الذين دفنوا علنا.

ويتوجب علينا أن نبين انه طيلة حصارنا لمدينة نيقية كانت المؤن والأغذية تصل الينا بوساطة السفن وبرضى من الامبراطور ، ثم أمر قادتنا بصنع الآلات الحربية من أكباش وأبراج خشبية ومجانيق ، واطلقت السهام من الأقواس ، والحجارة من المجانيق ، وتحارب رجالنا ورجال العدو كرا وفرا بكل ما أوتوا من قوة ، ولقد هاجمنا المدينة بمعداتنا الحربية مرارا وتكرارا لكن مناعة الأسوار وحصانتها أحبطت جهودنا ، وسقط خلال ذلك عدد كبير من الأتراك ومن رجالنا بعد اصابتهم بالسهام او بالحجارة.

الحق أقول إن الحزن كان سيملأ قلبك ، والدموع ستنهمر من عينيك لو أنك شاهدت الأتراك وهم يقتلون أي واحد منا لدى اقترابه من الأسوار ، إذ انهم كانوا يرمون الخطافات الحديدية ، وينتشلون الجثة كي ينهبوها ، ولم يجرؤ أحد من رجالنا ـ أو استطاع ـ انقاذ الجثة من أيديهم ، وكان الأتراك يرمون بتلك الجثث خارج الأسوار بعد سلبها وتعريتها .

وسحبنا عبر اليابسة عدة قوارب صغيرة بوساطة الثيران والحبال ، وكنا قد جلبنا هذه القوارب من بحيرة سفيتوت وأوصلناها حتى بحيرة نيقية حيث القيناها فيها واستخدمناها لحراسة مداخل المدينة بغية منع وصول المؤن والمعونات اليها.

وبعدما مضى على حصارنا للمدينة خمسة أسابيع ، القينا خلالها

الرعب في قلوب الأتراك بهجماتنا ، عقد هؤلاء مؤتمرا أرسلوا على إثره الوسطاء الى الامبراطور وسلموا اليه المدينة سرا ، بعدما كنا قد ضيقنا عليها الحصار بقوانا وببراعتنا.

ثم أدخل الأتراك الى المدينة مجموعة من التوركبلي ، بعث بهم الامبراطور الى هناك ، وتسلم هؤلاء المدينة بكل ما كان فيها من ثروات باسم الامبراطور تماما حسبما أمرهم ، وبعد مصادرة ما كان فيها من أموال أمر الامبراطور باعطاء الهدايا والهبات لقادتنا ، وكانت الهدايا من الذهب والفضة والثياب ، كما وامر بتوزيع قطع النحاس التي يسمونها « ترترون » على الرجالة.

وفي اليوم الذي سقطت فيه نيقية او أستسلمت بهذه الطريقة كان قد انقضى عشرون يوما من شهر حزيران.

المعركة المدمرة بين المسيحيين والأتراك:

بعدما حصل امراؤنا على الأذن بالرحيل من الأمبراطور ، شرعنا في اليوم الثالث قبل مطلع شهرتموز متجهين الى داخل بلاد الاناضول ، وبعدما سرنا لمدة يومين وصلتنا اخبار تفيد أن الأتراك قد نصبوا لنا كمينا في سهل خيل اليهم اننا لا بد مجتازوه ، لهذا توقعوا أن يحاربونا هناك.

وعندما علمنا بهذا لم نجبن ولم تتخل عنا شجاعتنا ، ولما اكتشفت طلائعنا في تلك الأمسية كثيرا من الأتراك على بعد منا اعلمونا بذلك على الفور ، فشددنا الحراسة طوال الليل لحماية المعسكر من جميع الجهات ، وفي الصباح التالي الذي وافق أول تموز ، حملنا أسلحتنا وعلى صوت الأبواق عبأنا الجيش ووضعناه

في ترتيب المعركة ، وسار الأمراء والقادة على رأس الكتائب والسرايا ، وبأعلام خفاقة بدانا الزحف بكل انتظام.

وفي الساعة الثانية من النهار اقتربت طلائعهم من مقدمتنا ، وحين عرفنا ذلك ، عسكرنا على مقربة من مستنقع هناك ، وانزلنا حمولة دوابنا ومن ثم هيأنا أنفسنا للقتال.

وإثر ذلك واقعنا الأتراك ، أولئك الفرس الكفرة ، الذين كان أميرهم قلج أرسلان بن سليمان يملك نيقية وأراضي الأناضول تحت سلطانه ، وكان الأتراك قد استجابوا لأوامر سليمان فقدموا لنجدته من مسيرة ثلاثين يوما ، وكان بصحبته العديد من الأمراء مثل كرادجيم (قراجة؟) وأمير ياتوش (اقوش - أتسز؟) وسواهما ، وبلغ تعدادهم ثلاثمائة وستين الف مقاتل ، كلهم من حملة القوس والنشاب ، فقد كان من عادتهم التسلح هكذا ، وكانوا جميعا يمتطون الخيول ، أما نحن فكان بيننا رجاله وكان أيضا لدينا حملة قوس ونشاب.

وكان الدوق غودفري والكونت ريموند وهيوج العظيم قد تغيبوا عنا آنذاك لمدة يومين ، فقد انفصلوا عنا لسبب أجهله ، مع مجموعة كبيرة من الرجال عند مفترق أحد الطرقات ، ولهذا تحملنا أثناء القتال خسائر لا تعوض ، فهلك عدد كبير من رجالنا يوازي عدد الأتراك الذين نجوا من الموت والأسر فيما بعد ، ولأن جماعتنا الذين انفصلوا عنا تأخروا في استلام رسائلنا ، فقد تأخروا في القدوم لنجدتنا.

وكان الأتراك في تلك الأثناء يزمجرون ويصرخون كالذئاب المفترسة ، ويرموننا بكل ضراوة بوابل كثيف من السهام فوجا إثر آخر ، ولهذا أصبنا بصدمة ، وبما أننا نواجه الموت ، وحيث أن عددا كبيرا من رجالنا أصيبوا بالجراح ، فقد ركنا الى

الفرار ، وليس هذا بمدهش ، ذلك أن أساليب القتال هذه لم تكن معروفة لدينا.

وفي الجانب الآخر من المستنقع شقت قوة كبيرة من الأعداء طريقها بكل ضراوة حتى اقتربت من معسكرنا ، ودخل الأتراك الى خيامنا وتخاطفوا امتعتنا وقتلوا بعض رجالناوحدث هذا عندما اخذت مقدمة جيش هيوج العظيم والكونت ريموند والدوق غودفري تصل إلى أرض الكارثة إلى حيث المؤخرة ، ولهذا عندما تراجع رجالنا إلى الخيام خيل إلى العدو والذين كانوا ينهبون هناك اننا كررنا لمهاجمتهم لذلك لاذوا بالفرار ، لكن اه لو علموا الحقيقة فما خيل إليهم أنه شجاعة وإقدام لم يتعد الخوف والرعب الشديدين !

ثم ماذا أقول بعد هذا ؟ كنا قد تجمعنا مع بعضنا كما تتجمع الأغنام ، ترتعد فرائصنا ويهدنا الرعب ، ويحيط بنا العدو من جميع الجوانب إلى حد اننا لم نقدر على التحرك بأي اتجاه ، ووضح لنا انذاك ان مانزل بنا كان نتيجة اثامنا ، إذ افسد الترف بعضنا ، في حين افسد الجشع مع رذائل اخرى البقية ، وصدرت أصوات شديدة وانبعثت إلى السماء لامن رجالنا واطفالنا ونسائنا فحسب بل من عند الكفار المهاجمين لنا ، وانذاك فقدنا كل امل لنا بالبقاء ، واعترفنا ساعتئذ باثامنا امام مجلس العدالة ، واستمطرنا بكل تواضع رحمة الرب ، وكان في أوساطنا اسقف لي بوي مرشدنا ، ومعه اربعة اساقفة اخرين وكثير من الكهنة ، تدثروا جميعا بالأردية البيضاء وتوسلوا بكل خشوع إلى الرب أن يهزم عدونا ، وأن يمدنا بعونه ، ورتلوا باكين ، وبكوا مرتلين ، وهرول كثير من الناس نحو رجال الدين موقنين أن نهايتهم قد دنت وقصدهم الاعتراف بخطاياهم .

وقاوم قادتنا : الكونت روبرت النورماندي ، وستيفن كونت بلوا ، وروبرت كونت الأراضي المنخفضة وبوهيموند الأتراك بكل

ما أوتوه من قوة و حاولوا مرارا مهاجمتهم غير أنهم صدوا وردهم الأتراك بكل قسوة .

هرب الأتراك وانتصار المسيحيين :

وفي الحقيقة لايمنح الرب النصر لمجد النبلاء ، ولالبراعة المقاتلين ، لكنه يمنحه لمحبته للذين صفت نفوسهم ، وينزله على الذين تحصنوا بالقوة الربانية وقت حاجتهم إليه ، ولذلك يبدو أنه استجاب لدعواتنا ، فبدأ يعيد إلينا قوتنا رويدا رويدا ، ويضعف قوة الأتراك ، فما أن رأينا رفاقنا في المؤخرة قادمين لنجدتنا حتى مجدنا الرب ، واستعدنا شجاعتنا وأعدنا تنظيم صفوفنا وفيالقنا واستبسلنا في التصدي للعدو ومقاومته .

واحسرتاه كم قتل الأتراك في ذلك اليوم من رجالنا الذين تأخروا وراءنا على الطرقات ، وحلت الكوارث بين صفوفنا من الساعة الأولى للنهار حتى الساعة السادسة ، غير أننا استرددنا شجاعتنا شيئا فشيئا إثر وصول رفاقنا ودعمهم لنا ، وما أن حلت النعمة الربانية علينا وظهرت المعجزة العلوية بين صفوفنا حتى لوى الأتراك أعنتهم فجأة وولوا الأدبار .

و طاردناهم و نحن نصرخ بكل شراسة فوق الجبال و عبر الوديان ، و لم نتوقف حتى بعدما وصل بعض رجالنا إلى خيامهم ، بعض رجالنا كثيرا من جمال وخيول الأتراك بحمولاتهم واستحوذوا حتى على خيامهم التي هجروها لرعبهم ، ولاحق آخرون فلول العدو حتى حلول الظلام ، وبما أن خيولنا جاعت وتعبت فقد أتيح لنا الاحتفاظ ببعض خيولهم .

ومن آيات الرب الكبرى ومعجزاته أنه خلال اليومين التاليين أو

الثلاثة لم يتوقف الترك عن الفرار ، مع أن أحدا - باستثناء الرب - لم يطاردهم انذاك ، ثم استأنفنا سفرنا بكل حيطة ، وقد أصابنا عطش شديد بعض الأيام عصف بنا إلى حد أن عددا من الرجال والنساء هلكوا عطشا ، وتابع الأتراك فرارهم بلا انتظام ، وبحثوا لأنفسهم عن ملاجيء يختبئون فيها في الأناضول .

ضيق حال المسيحيين :

بعدما وصلنا إلى أنطاكية الصغرى في مقاطعة بيسيديا ، توجهنا إلى قونية ، وكنا في تلك الأماكن دوما بحاجة إلى الخبز والطعام ، فقد وجدنا بلاد الأناضول مع أن أراضيها ممتازة تدر الخيرات وتعطي المنتجات من كل نوع ، وجدناها مقفرة لأن الأتراك دمروها وعاثوا فيها وهجرها أهلها .

ومع هذا كثيرا ما كنت ترى الناس في بحبوحة من العيش لوفرة المحاصيل التي جنيناها من المزارع المنتشرة في أنحاء البلاد ، وقد تم ذلك بمعونة الرب الذي أشبع بخمسة أرغفة وسمكتين خمسة آلاف نسمة (متى : ١٧/ ٢١ . مرقس : ٦/ ٣٨ - ٤٤ . لوقا : ٩/ ١٦ . يوحنا : ٦ / ٩ - ١٠) وبذلك قنعنا جميعا ، وأقررنا بكل غبطة أن جميع هذه المنح كانت بركة وهبة من الرب .

ولربما كنت ستضحك أو حتى تبكي رثاء لو أنك شهدت عددا كبيرا من هؤلاء الناس ، ممن لم تتأمن لهم دواب التحميل التي هلك كثير منها ، وقد حملوا حاجياتهم من ثياب وأطعمة وغير ذلك مما يحتاجه الحجاج على كبش أو جدي أو خنزير أو كلب ، وقد قصمت هذه الأثقال ظهور هذه البهائم الهزيلة وحطمتها ، وفي بعض الأحيان اضطر الفرسان المسلحون إلى ركوب ظهور الثيران .

ترى من الذي سمع خليطا من اللغات في جيش واحد كهذا

الجيش ؟ لأنه اجتمع فيه الفرنجة والفلمنكيون ، والفريسيون ، والغاليون ، واللوبرغيون واللوثارنجيون والبافاريون والألمان والانكليز والسكوتلنديون والأوتانيون والطليان والداشيون والأبوليون والاسبان ، والبريتانيون والاغريق والأرمن ، ولو أراد بريتاني أو الماني أن يخاطبني لما أمكنني إجابته أو فهم سؤاله ، ومع هذا إنه على الرغم من اختلاف السنتنا ، كنا اخوة في محبة الرب ، وكنا على وفاق ووئام في الراي ، وكان إذا مافقد واحد منا بعض حاجياته حفظها له من وَجدها لعدة أيام وهو يسأل عن فاقدها حتى يجده فيعيد إليه حاجته ، وفي الحقيقة كان هذا لائقا بالذين اشتركوا في هذه الرحلة المقدسة .

أعمال الكونت بلدوين أخو غودفري وبطولاته والاستيلاء على مدينة إديسا المعروفة باسم الرها :

لدى وصولنا إلى مدينة هرقلية راينا مذنبا في السماء ظهر بلون ناصع البياض على شكل سيف يشير نحو المشرق ، ولم نعرف ماذا ينبيء هذا من حوادث المستقبل فلقد أودعنا الحاضر والمستقبل بيد الرب .

وبعد هذا وصلنا إلى مدينة مزدهرة اسمها مرعش ، استجمينا فيها بهدوء لمدة ثلاثة أيام ، وبعدما ابتعدنا عن مرعش مسيرة يوم ، وأصبحنا على مسيرة ثلاثة أيام من انطاكية سورية ، انسحبت انا فولتشر من الجيش وتوجهت يسارا مع الكونت بلدوين أخو الدوق غوفري، وكان بلدوين فارسا عظيم المقدرة ، وكان قد ترك الجيش مع أتباعه وتوجه إلى طرطوس كليكيا واحتلها بإقدام وشجاعة فائقة ، وانتزعها من تانكرد الذي كان قد أدخل رجاله إليها بموافقة الأتراك ، وبعدما ترك بلدوين حراسه هناك عاد إلى الجيش الرئيس .

وهكذا جمع بلدوين ـ بعدما وضع ثقته بالرب وبقوته الشخصية ـ عددا صغيرا من الفرسان وانطلق في رحلته باتجاه الفرات ، واستولى هناك على عدة مدن عنوة أو بالحيلة كان اهمها مدينة تل باشر ، فقد سلمها له بسلام الأرمن الذين كانوا يقطنون فيها ، ثم دانت له مدن أخرى بالطاعة .

وإثر انتشار هذه الأخبار في أرجاء البلاد أرسل أمير مدينة الرها وفدا إلى بلدوين ، والرها مدينة ذائعة الشهرة تقع في منطقة من أخصب المناطق ، وهي في الناحية السورية من بلاد الجزيرة ، وتبعد نحو عشرين ميلا عن نهر الفرات ، وقرابة المائة قبل مدينة انطاكية .

وطلب الأمير من بلدوين القدوم إليه كي يصبحا صديقين مثل اب وابنه ماداما أحياء ، وإذا ماحدث ومات أمير الرها يحق لبلدوين تملك المقاطعة برمتها مباشرة ميراثا مستمرا له وكأنه الابن الشرعي للأمير ، ولما لم يكن لهذا الأمير ولد ولابنت ، ولم يكن باستطاعته حماية ولايته من الأتراك ، فإنه اثر ـ كاغريقي ـ أن يدافع بلدوين عنه وعن ولايته ، ذلك أنه سمع أن بلدوين وفرسانه كانوا من أشد المحاربين وأعظمهم بسالة . وما أن سمع بلدوين بهذا العرض وتأكد من صحته من الرسل القادمين إليه من الرها الذين اقسموا أمامه على صحة مانقلوه إليه ، حتى انطلق على رأس جيشه الصغير المكون من ثمانين فارسا ، وعبر نهر الفرات ، وبعد هذا العبور أسرعنا في سفرنا ولم نتوقف طوال الليل وكان الخوف يملأ صدورنا ، لمرورنا بين مختلف البلدان الشرقية المنتشرة هنا وهناك ، وعندما سمع الأتراك القاطنون في مدينة سميساط الحصينة بقدومنا ، نصبوا لنا الكمائن على الطرقات التي خيل إليهم أننا سنركبها ، غير أن ارمنيا هناك حمانا في قلعته في الليلة التالية ونبهنا لكي نحذر من كمائن الأعداء ، ولهذا السبب اختبأنا هناك ليلتين ، وفي اليوم الثالث هجم الأتراك الذين ضايقهم تأخرنا ، فتخلوا عن كما ئنهم ورفعوا راياتهم ووقفوا أمام القلعة التي اعتصمنا فيها ، واستولوا على المواشي التي كانت ترعى في الحقول

وخرجنا لقتالهم ، لكن لقلة أعدادنا لم نستطع منازلتهم ، ولقد رمونا بالسهام ، غير انهم لم يصيبوا احدا منا بجراح ، وخلفوا على أرض المعركة واحدا من رجالهم وقد صرعه رمح ، وقد أمسك الرجل الذي قتله بحصانه ، ثم انصرف الأتراك وبقينا نحن في مكاننا .

واستأنفنا في اليوم التالي رحلتنا ، ولو كنت معنا لأدهشك رؤية الأرمن كيف كانوا يخرجون بخضوع للترحيب بنا عند مرورنا أمام مدنهم وقد حملوا الصلبان والأعلام ، وقاموا بتقبيل أقدامنا وثيابنا محبة بالرب ، لأنهم سمعوا اننا سنحميهم من الأتراك الذين رزحوا تحت نير ظلمهم من قبل .

ووصلنا أخيرا إلى الرها حيث استقبلنا الأمير المذكور ومعه زوجته وجميع أهالي المدينة بكل ترحاب وحفاوة ونفذوا وعودهم كلها لبلدوين على الفور .

وبعد إقامتنا هناك مدة خمسة عشر يوما ، تآمر أهل المدينة بخبث لقتل أميرهم ، وذلك لأنهم كانوا يبغضونه ، واستهدفوا رفع بلدوين الى القصر ليحكم بدلا منه البلاد ، و قدم هذا الاقتراح لبلدوين و تم تنفيذه ، و في الحقيقة أصاب الحزن بلدوين و كذلك رجاله لأنهم لم يقدروا أن يحصلوا له على الرحمة . وما أن قبل بلدوين من أهالي المدينة مركز الامارة الذي شغر الآن بمقتل الأمير بهذه الطريقة الفظيعة حتى شن حربا على الأتراك الذين كانوا في بلاده ، وقد هزمهم مرات عديدة أو قتلهم ، وفي الوقت نفسه لاقى العديد من رجالنا حتفهم أيضا على أيدي الأتراك .

ولقد كنت أنا فولتشر أوف تشارترز كاهن بلدوين هذا ، وأرغب الآن في العودة إلى سرد بقية الحكاية التي نأيت عنها ، وأعني حكاية جيش الرب .

وصول الفرنجة إلى أنطاكية ومآسي الحصار :

وصل الفرنجة إلى أنطاكية سورية في شهر تشرين الأول ، وهي مدينة كان قد بناها سلوقوس بن أنطيخوس واتخذها عاصمة له ، وكان اسمها فيماسلف ربلاطا ، وهي تقع على الضفة الأخرى من النهر المسمى العاصي ، وصدرت الأوامر بالعسكرة أمام المدينة بينها وبين أول حجارة المعالم ، وهناك دارت معارك كثيرة فيما بعد ، ألحقت خسائر فادحة بالطرفين ، فعندما تدفق الأتراك من المدينة قتلوا عددا كبيرا من رجالنا ، إنما بعدما دارت عليهم الدوائر ودحرناهم أصيبوا بالفواجع .

وانطاكية مدينة كبيرة جدا ، وهي شديدة الحصانة منيعة الموقع ، لايمكن لعدو الاستيلاء عليها من الخارج إذا ماتوفرت فيها الأغذية والامدادات ، وإذا عقد سكانها العزم على الدفاع عنها ، وفيها كنيسة ذائعة الشهرة كرست تمجيدا لذكرى بطرس الرسول الذي صار اسقفا فيها بعدما تسلم من السيد المسيح صدارة الكنيسة ومفاتيح مملكة السموات ، وهناك كنيسة أخرى مستديرة الشكل ، مكرسة على مجد مريم المباركة ، وهي معمرة بطريقة تتناسب مع مقامها ، وكانت هذه الكنائس جميعها تحت سلطان الأتراك منذ أمد طويل ، لكن الرب ، العالم بكل شيء صانها لنا خالصة لم تشبها شائبة حتى نتشرف بعبادته داخلها في يوم من الأيام .

ويبعد العاصي عن أنطاكية قرابة ثلاثة عشر ميلا ، وبما أن نهر العاصي يصب في تلك البقعة ، فإن المراكب المحملة بالسلع المجلوبة من مختلف الأصقاع يؤتى بها إلى أنطاكية نفسها بوساطة قناة مخصصة ، وهكذا تتزود المدينة بالسلع من البر ومن البحر فتمتلىء بالخيرات من كل صنف .

وتعاهد امراؤنا واقسموا بعضهم لبعض بعدما راوا مناعة المدينة وصعوبة اقتحامها ،.عدم الزحزحة حتى يتاح لهم الاستيلاء عليها بالقوة او بالخديعة .

ولقد وجدوا في النهر المذكور عدة قوارب فاستولوا عليها، واتخذوا منها جسرا عائما عبروا فوقه لتنفيذ خططهم ، ولم يكونوا قبل ذلك قادرين على اجتياز النهر .

ولما راى الأتراك هذه الحشود الهائلة من المسيحيين تحيط بهم اصابهم الهلع ، وايقنوا انهم لن يفلتوا منهم ، وبعد أن تشاوروا فيما بينهم ارسل يغي سفان صاحب انطاكية ابنة شمس الدولة الى السلطان ـ اي امبراطور الفرس ـ ينشد منه تقديم العون والاسعاف بأسرع مايمكن ، ذلك انه لم يكن لديه أمل الابعون محمد (صلى الله عليه وسلم) حاميهم ، وبادر شمس الدولة لأداء المهمة الموكلة اليه .

ودافع الذين مكثوا في المدينة عنها ، وفيما هم ينتظرون وصول النجدات التي طلبوها أخذوا يحيكون المؤامرات الخطيرة ضد الفرنجة ، ومع هذا أحبط هؤلاء حيلهم بقدر ماأوتوا من قوة ، وفي أحد الأيام قتل الفرنجة سبعمائة من الأتراك ، وهكذا فان الذين نصبوا شراكا للفرنجة وقعوا فيه ، وهنا كانت قوة الرب واضحة جلية ، ورجع جميع رجالنا سالمين باستثناء رجل واحد أصيب بجراح .

ولقد قتل الأتراك في فورة غضبهم اعدادا كبيرة من المسيحيين من اغريق وسريان وارمن ، والقوا بما لايحصى عده من الرؤوس من فوق الأسوار ، وقد رموها بالمجانيق على مرأى من الفرنجة ، الأمر الذي سبب لنفوس رجالنا كثيرا من الأسى ، فقد كان هؤلاء الأتراك يمقتون هؤلاء المسيحيين لأنهم خافوا من أن يساعدوا الفرنجة بطريقة ماعلى صد هجوم تركي .

وبعدما حاصر الفرنجة المدينة لفترة طويلة من الزمن ، وبعدما عدموا الخبز مع أنهم تجولوا في الأراضي المجاورة بحثا عن الطعام فلم يجدوا ماينهبوه أو يشتروه ، بعد هذا كله شرع الكثيرون منهم يخططون سرا للتخلي عن الحصار والفرار اما عن طريق البر أو البحر .

نعم لم يكن لديهم مايعتاشون به ، وقد اضطروا الى البحث عما يقتاتونه في أماكن قصية ، وفعلوا ذلك والخوف يلازمهم ، لأنهم ابتعدوا أربعين أو خمسين ميلا عن موقع الحصار ، وهناك في المناطق الجبلية قتل الأتراك كثيرا منهم في كمائن نصبوها لهم .

وشعرنا ان مانزل من مصائب بالمسيحيين الفرنجة كان بسبب آثامهم ، وانهم لهذا السبب أخفقوا في الاستيلاء على المدينة بعد انقضاء كل هذه المدة ، ذلك أن الجشع والترف والعجرفة والسطو قد أفسدت نفوسهم ، وتداول الفرنجة فيما بينهم حول ذلك ، وبعد مشاورات قرروا طرد النساء من المعسكر سواء أكن متزوجات أم لا ، اعتقادا منهم ان دنسهم في عبث الحياة الصاخبة قد أثار غضب الرب ، وفتش هؤلاء النسوة عن ملجأ لأنفسهن في القرى المجاورة .

وأصاب الشقاء والبؤس الغني مثلما لحق بالفقير ، بسبب الجوع والمذابح اليومية ولو لم يحفظ الرب - وهو الراعي الصالح - قطيعه متجمعا لهرب الجميع من هناك بلا استثناء ، وبدون جدال ، وذلك على الرغم من العهود التي قطعوها على أنفسهم من أجل الاستيلاء على المدينة ، وكان هذا محصلة للشح الشديد بالأغذية ، ولهذا انطلق العديد نحو القرى المجاورة بحثا عن الطعام ، ولم يعودوا بعد ذلك إلى المعسكر وتخلوا عن الحصار نهائيا .

ورأينا في تلك الآونة في السماء شعاعا أحمر ، كما شعرنا برجفة

كبيرة في الأرض ، ممـــا دب الهلع في قلوبنا ، وقـــد رأى الكثيرون علامات معينة على شكل صليب ، بيضـــاء اللون ، تسـير في طـريق مستقيم نحو الشرق .

فاقة المسيحيين واملاقهم وفرار كونت بلوا

بعدما خلت الأراضي حول انطـاكية في عام ١٠٩٨ مـن الجمـوع الفقيرة من شعبنا ، ازداد البؤس والشعور بالأسى في نفوس الصغار والكبار وذلك بسـبب الجـوع الشـديد ، واكل الناس مختلف أنواع النباتات التي بقيت قائمة في الحقول مع جميع أنواع الأعشـاب غير المستحبة وحتى الأشواك التي لم يستطيعوا اجادة طهيهـا لانعـدام الأحطاب لاشعال النيران ، لذا أدمت السنة اكليها ، واضطر الناس ايضا إلى اكل الخيول والحمير والجمال والكلاب وحتى القوارض ، لا بل اكثر من هذا اكل الفقراء منا جلود الحيوانات وبذور الحبـوب التي وجدوها في روث المواشي .

وفضلا عن الجوع تحمل الناس البرد والحـر و وابـل الأمـطار في سبيل محبة الرب ، وقـد تمـزقت خيامهـم وبليت وتعفنت بسـبب استمرار هطول الأمطار ، ولهذا لم يجد العديد من الناس لأنفسـهم غطاء إلا السماء .

وكما يمتحن الذهـب ثـلاث مـرات في النار ، ويمحص سـبع مرات (مزامير ١٢/٧) ،ايضا اعتقد أن الرب امتحـن الخلص ، فطهرهم بعد عذاب شديد من ذنوبهم ، ومع أن خنجر الحشـيشية لم يخفـق في عمله المميت ، تحمـل كثير مـن الناس عذاب الاحتضـار الطويل ، وتقبلوا بسرور اسمى درجات الشهادة ، ولعلهم استلهموا السلوان من مثل أيوب المبارك الذي طهر روحه ونقاها بعذاب جسده وهو دوما يذكر الرب (أيوب : ٢/١) فهم عندما كانوا يحـاربون الكفار كانوا يجاهدون في سبيل الرب واسمه .

الرب الذي خلق كل شيء هو الذي يأمر من خلق ويرعى ويدعم كل ما يأمر به ، يحكم الرب بأمره فيصلح ما يشاء ويدمر ما يشاء ، ويخيل لي أن الكفار سيجري تدميرهم حتى يدفعوا ثمن العذاب الذي أراده الرب للمسيحيين ، فهم الذين طالما داسوا بأقدامهم الملوثة كل ما يخص الرب مع أن ذلك حصل بمشيئته وفق ما يستحقه الناس ، الحق انه سمح بذبح المسيحيين حتى يعظم خلاصهم ، وسمح أيضا بذبح الأتراك لاحقاق اللعنة على أرواحهم ، أما الأتراك الذين كتب لهم الخلاص فإنه أرضى الرب تعميدهم من قبل كهنتنا ، « لأن الذين كتب لهم ناداهم وعظمهم»(رومية : ٨ / ٣٠) .

ثم ماذا بعد ؟ لقد تخلى بعض رجالنا ـ كما سمعتم ـ عن حصار عظيم الشدة ، بعضهم فعل ذلك بسبب الفاقة وبعضهم نتيجة الجبن ، وآخرون انسحبوا خشية الموت ، وكان الفقراء قد انسحبوا أولا ثم تبعهم الأثرياء .

ثم كان أن تخلى ستيفن كونت بلوا عن متابعة الحصار ، وأبحر عائدا في ديارة فرنسا ، ولقد ألم بنا الأسى جميعا لذلك ، لأنه كان رجلا أصيلا ونبيلا شجاعا شديد البأس ، وفي اليوم التالي لسفره سقطت مدينة أنطاكية للفرنجة ، ولو أنه صبر وبقي لسر سرورا عظيما مع الآخرين ، ذلك أن فعلته جلبت إليه العار والازدراء ، ومقرر أن البداية الحسنة لا تجدي المرء إذا لم تكن الخاتمة حسنة ، أما ما يتعلق بشؤون الرب فسألتزم بالاختصار لئلا أنحرف عن الطريق القويم ، ففي هذا المجال علي الالتزام بالحذر حتى لا أضل فأبتعد عن الحقيقة .

لقد بدأ حصار أنطاكية كما نوهنا من قبل في شهر تشرين الأول ، واستمر طوال الشتاء والربيع حتى شهر تموز ، وتبادل الأتراك والفرنجة خلال ذلك الهجمات والهجمات المضادة فانتصروا وهزموا ، أما نحن فقد انتصرنا أكثر منهم ، وحدث في احدى

المناسبات أن وقع العديد من الأتراك ـ أثناء فـرارهم ـ في نهـر العاصي وغرقوا بشقاء ، وعلى شاطىء هذا النهر تـواقع الشـعبان مرات ومرات .

وكان رجالنا قد شيدوا أمام المدينة عدة قلاع ، اسـتخدموها للقيام بهجمات متعددة استطاع رجالنا أثناءهـا أن يصـدوا بـكل بسـالة الأتراك ، وبذلك تمكنوا في كثير من الأحيان أن يدفعوا مواشيهم عن الوصـول إلى المراعي ، ولم نحضر شـيئا مـن الأرض في المناطـق المجاورة ومع هذا كثيرا ما عملوا لالحـاق الضرر بنا في مناسـبات مختلفة .

سقوط مدينة أنطاكية

ومهما يك من أمر ، عندما رضي الرب علينا ، باستجابته ـ بـدون ريب ـ لدعوات شعبه في أن يضع حدا لشـقائهم ، فبعـدما ابتهلوا إليه بلا توقف وصلوا يوميا استجاب فوهبهم بمحبته استلام المدينة سرا من خلال (أرمني) من رجال الأتراك ، وهكذا رجعت المدينة إلى حكم المسيحيين ، واليك إذا تفـاصيل أخبـار الخيانة فـأصغي إليها وإن لم تكن حقا خيانة .

لقد تجلى الرب (لأرمني) من رجال الأتراك ، كانت قد كتبـت له بركة الرب ، وقال له : «قم أيها النائم ، فأنا أمـرك بـاعادة المدينة إلى المسيحيين » ودهش الرجل غير أنه احتفظ بـالرؤيا سرا ، ثـم تجلى له الرب ثانية وقال له : «أعد هذه المدينة إلى المسيحيين ، فأنا يسوع المسيح الذي أمرك بذلك »وارتبك الرجل واحتار فيمـا يفعـل وذهب إلى مولاه صاحب أنطاكية وأعلمه بأمر الرؤيا فرد هـذا عليه قائلا : «أوتريد أيها الغبي أن تطيع شبحا من الأشـباح ؟ »فـرجع الرجل والتزم بالصمت .

ومجددا تجلى له الرب وقال له : « لم لم تنفذ ماأمرتك بــه ؟لاتتـردد لانني انا الذي أمرك بهذا ، انا رب الجميع » ، ولما اختفى الشك من نفسه بدأ هذا الرجل يخطط سرا مع رجالنا ويرسم مؤامرة تمـكنهم من الاستيلاء على المدينة .

وبعدما تم الاتفاق سـلم الرجـل ابنه إلى الأمير بـوهيموند ليكون رهينة لديه ، لأن بوهيموند كان أول من سمع بهذه الخطة وأول مـن اقتنع بها ، وفي الليلة المتفق عليها مكن الرجل عشرين من رجالنا من تسلق السور بواسطة حبال دلاها لهم ، وبـادر هؤلاء على الفـور ، وبدون أي تقاعس إلى فتح الباب وفي تلك الأثناء تبعهم أربعون رجلا أخرون من جنودنا بواسطة تسلق الأسوار أيضا بـالحبال ، وقتلوا ستين من الأتراك الذين صدفوهم يحرسون الأبراج ، وإثر ذلك صاح الفرنجة جميعا صيحة رجل واحد : « إنهــا ارادة الرب » ، وكانت تلك الصيحة الشعار الذي كنا نطلقه حين نوشك على انجاز أي عمل مجيد .

وإثر سماع الأتراك لهذه الصـيحة دب رعب هـائل في نفـوسهم ، وبادر الفرنجة إلى الهجوم على المدينة بدون تقاعس حيث أن ظلمـة الليل أخذت مع الفجر بالتلاشي ، وعندما رأى الأتراك راية بوهيموند ترفرف في الأعالي ، والفوضى تنتشر في كل مكان وتعـم ، وسـمعوا أبواق بوهيموند تصـدح مـن أعالي الأسـوار ، ورأوا الفـرنجة يقتحمون الشوارع بسيوف مشرعة ويقتلون الناس بوحشية ، عندما شهدوا هذا كله أصـابهم الرعب ، فـأمعنوا بـالفرار لا يلوون على شيء ، وتمكن بعض الهاربين من الأتراك من الوصـول إلى القلعـة القائمة على سفح الجبل .

وشرع العامة من رجالنا بالاستيلاء على كل ما وقعت عليه أيديهـم في الطرقات والبيوت ، اما الفرسان الذين تخصصوا بفنون القتال ، فقد تابعوا مطاردة الأتراك وذبحهم ، أما يغي سغان أمير انطـاكية

فقد هرب منها ، وصدفه بعض الفلاحين الأرمن ، فقطعوا رأسه واحضروه بالحال إلى الفرنجة .

العثور على الحربة المقدسة

عثر رجل بعد سقوط انطاكية على حربة في حفرة من الأرض في كنيسة القديس بطرس ، وادعى هذا الرجل بعد اكتشافه للحربة انها الحربة ذاتها التي اطلقها لونجينس - كما ورد في الانجيل - فطعنت الجنب الأيمن من يسوع المسيح - « ولكن واحدا من العسكر طعن جنبيه بحربة وللوقت خرج دم وماء » - (يوحنا : ١٩ / ٣٤) ، وادعى الرجل أن الرسول أندروز هو الذي أوحى له بذلك ، وبعد اكتشاف الحربة ، روى الرجل القصة لأسقف لى بوي ، وللكونت ريموند ، ولم يصدق الأسقف هذه الحكاية ، لكن الكونت أمل أن تكون صحيحة .

وإثر سماع الناس بهذا الخبر ابتهجوا كثيرا ومجدوا الرب وحمدوه ، وظلت الحربة لمدة مائة يوم موضع اجلال وتقديس ، وحملها الكونت ريموند بكل فخار وتولى حمايتها ، ثم ساورت الشكوك عدد كبير من الكهنة والعلمانيين ، وارتابوا في أن تكون هذه حقا حربة الرب المقدسة ، وانها مجرد حربة اخرى عثر عليها ذلك الرجل الدجال المخادع .

وفي الشهر الثامن بعد الاستيلاء على مدينة انطاكية ، وبعد ثلاثة أيام من الصيام والصلوات التي أسهم فيها الجميع أشعلوا كومة كبيرة من الحطب في وسط حقل أمام مدينة عرقة ، وقام الأساقفة بتقديم الصلوات الخاصة بأعمال المحنة فوق النار ، ومر الرجل الذي عثر على الحربة - بناء على طلبه - مسرعا يركض خلال الجمر الملتهب وذلك بغية اثبات أمانته ، وبعدما مر الرجل من خلال النار ، أيقنوا انه كان مذنبا لأن جلده احترق ، وعلما انه اصيب اصابة

قاتلة ، وبالفعل ظهرت نتيجة ذلك فيما بعد ، فقد تـوفي الرجـل بعـد اثني عشر يوما مكتويا بعذاب الضمير .

ولما كان كل انسان قد قدس هذه الحربة محبة واجلالا للرب ، فقـد أصيب كل هؤلاء الذين آمنوا بها بحـزن عميق وتخلوا عن ايمـانهم بها ، ومع ذلك فإن الكونت ريموند قد احتفظ بهـا بعـد ذلك لفتـرة طويلة .

محاصرة الأتراك للمسيحيين داخل أنطاكية :

وصل في اليوم التالي لاحتلالنا أنطاكية حسبما وصفنا ، حشد كبير جدا لا يعد ولا يحصى من الأتراك ، وضربوا حصارا حـول المدينة ، ذلك أنه ما إن علم السلطان ملك بلاد الفـرس ، بحصـار الفـرنجة لأنطاكية حتى حشد على الفور جيشا عرمرما من الرجال ، وارسله ضد الفرنجة ، وكان اسم قائد هذا الجيش كربوغا ، واعيقت مسيرة هذا الجيش مقدار ثلاثة أسابيع أمام مدينة الرهـاالتي كان يملكهـا آنذاك بلدوين ، وبعدما أخفق في الاستيلاء عليها ، سارع بزحفه نحو أنطاكية لانجاد الأمير يغي سفان .

وعندما رأى الفرنجة هذه المستجدات وهنت عزائمهـم ، وزاد على هذا أن عقوبتهم أيضا قد تضـاعفت بسـبب خـطاياهم الأخـرى وآثامهم ، ذلك أن العديد منهـم مـا إن دخلوا المدينة حتـى عاشروا النساء منتهكين بذلك ناموس الشريعة .

وتمكن نحو من ستين ألفا من الأتراك من دخول المدينة عن طـريق القلعة من جانب الجرف الشاهق ، وضايقوا رجالنا بحملات عنيفـة متكررة عليهم ، بيد أنهم لم يمكثوا هناك طويلا فقـد دب الرعب بين صفوفهم فغادروا المدينة ليحاصروها مـن الخـارج ، وهـكذا بقـي

الفرنجة محاصرين خلف الأسوار في وضع قلق وحـرج شـديد مـن الصعب تصوره .

الرؤى التي ظهرت داخل المدينة

ولم ينس الرب في تلك الأثناء عباده ، فتجلى لكثير مـن الناس ، وقد تواتر ذكر هذه الحقيقة وانه طمأنهم ووعدهـم بـالسرور بنصر كبير ، ثم تجلى الرب لرجل دين كان قد فر لخوفه من الموت ، وقـال له : إلى أين ماض يا أخانا ؟ فأجابه : إنني هـارب ، خشـية أن ينالني سوء الطالع فأهلك .

شعر :

وهكذا هرب الكثيرون حتى لا يذوقوا طعم الموت الزؤام .
فأجاب الرب رجل الدين بقوله : « لا تهـرب بـل ارجـع ، وقـل للآخرين إنني سأكون معهم في المعركة فقـد طمـأنت نفسي صـلوات أمي ، ولسوف أكون رحيما مع الفرنجة ، وهـم قـد أوشـكوا على الهلاك بسبب آثامهم ، ليكن يقينهم وأملهم ثابتا ، فلسوف أكتب لهم النصر على الأتراك ، دعهم يتوبون أولا ، ولسوف ينجـون لأنني أنا الذي أكلمك ، أنا الرب » ، وعاد رجل الدين على أدراجه في الحال ، وذكر للفرنجة ما سمعه .

وسعى في هذه الأثناء عدد كبير من الفرنجة إلى الهبـوط ليلا مـن الأسوار بواسطة الحبال ليهربوا ، فقـد كانوا خـائفين مـن الموت جوعا أو بحد السيف ، وقد ظهر أمام واحد من النازلين أخوه وكان قد مات منذ أمد وقال له : إلى أين أنت هارب يا أخي ؟ امـكث ولا تخف ، فالرب سيكون معكم في حربكم ، وإن رفاقكم في هذه الرحلة ،

الذين تقدموكم إلى الموت ، سيقاتلون معكم ضد الأتراك ، واستبدت الدهشة بالرجل لدى سماعه كلام من مات ، وتوقف عن الفرار واخبر البقية بما حدث .

وساء وضع الفرنجة ولم يعودوا يطيقون تحمل العذاب اكثر مما فعلوا ، حيث لم يبق لديهم ما يأكلونه مما أوهنهم وأنهك خيولهم ، وعندما طاب للرب انهاء شقاء عباده ، أوحى لهم فاتفقوا على الصيام ثلاثة ايام مع تقديم الصدقات والصلوات عليهم بهذه الكفارات والادعية ينالون عطف الرب .

الفرنجة يقومون بالهجوم على الأتراك

وبعد بعض المداولات ، أخبر الفرنجة الأتراك عن طريق بطرس الناسك انهم إن لم يغادروا البلدان التي كان يمتلكها المسيحيون في الماضي بسلام ، فإنهم - أي الفرنجة - سيشنون عليهم هجوما في اليوم التالي ، واذا ما رأى الأتراك اللجوء إلى المبارزة بأن تقوم بين خمسة أو عشرة أو عشرين أو حتى مائة فارس يختارون من بين الطرفين ، حتى لا تراق دماء كثيرة اذا ما نشب القتال بين جميع المحاربين ، وفي تلك الحال سيتسلم الطرف المنتصر رجاله على الطرف الآخر ، المدينة بسلام ويحكمها بدون نزاع بعد ذلك .

كان هذا ما طلبه الفرنجة ، لكن الأتراك رفضوا الاستجابة لهم ، لأنه كانت عندهم ثقة كبيرة بأعدادهم الهائلة وقوتهم ، واعتقدوا انهم سيتغلبون علينا وسيكون بامكانهم ابادتنا ، فقد كان عددهم يقدر بثلاثمائة الف من فرسان ومشاة ، وكانوا يعلمون أن فرساننا قد أصابهم الوهن فغدوا ضعفاء مثلهم مثل المشاة .

ثم عاد رسولنا بطرس ، وأعطى جوابهم ، وعندما سمع الفرنجة

هذا استعدوا وقرروا تحضير أنفسهم لخوض المعركة بدون تردد واضعين كل أمالهم في الرب ، وكان عدد قادة الترك كبير ، كل واحد منهم يدعى أمير ، وكان منهم : كربوغا ، والملك رضوان والأمير سليمان مع عدد كبير أخر يفوق الحصر .

الاعداد للمعركة :

وكان أمراء الفرنجة هم : هيوج العظيم ، وروبرت كونت نورماندي ، وروبرت كونت الأراضي المنخفضة ، والدوق غودفري ، والكونت ريموند ، والأمير بوهيموند ، ونبلاء أخرون أقل منهم شأنا ، ورحمة الرب لروح أدهمر أسقف لى بوي ، الذي كان هو نفسه حواريا ، دائم العطف على الناس ، يخفف من الامهم ، ويمتن قوة إيمانهم بالرب .

أه ما أروع التقوى التي تقود الى اليقظة ، ففي الليلة السالفة أصدر أدهمر نفسه أمرا سمع بصوت المنادي : على كل فارس اطعام فرسه بنصيب أكبرمن العلف ، مهما كان عزيزا ، كي لا يسقط الفرس في اليوم المقبل أثناء القتال منهكا من الجوع ، نعم صدر هذا الأمر وتم تنفيذه ومع بوارق فجر اليوم الرابع قبل نهاية شهر تموز خرجوا جميعا من المدينة جاهزين للمعركة ، وتمت تعبئة الرجالة والفرسان في كتائب وسرايا تتقدمها الرايات ، وكان معهم الكهنة يرتدون أكسية بيضاء يبكون أمام جميع الناس من أجلهم ويرتلون الأناشيد للرب ، ويصدرون الأدعية من أعماق نفوسهم المؤمنة .

ورأهم عند ذلك رجل تركي يدعى مجير الدين ، وكان فارسا مقداما ، فتولته دهشة عظيمة لمرأهم يتقدمون ورياتهم خفاقة

مرفوعة ، وأيقن حين رأى رايات قادتنا التي كان يعرفها وهي تتقدم واحدة تلو الأخرى بنظام أن المعركة وشيكة الحدوث ، وكان يعرف انطاكية وقد نال خبرة بالفرنجة ، لذلك أسرع نحو كربوغا يخبره بما رأى ، وقال له : مابالك تلعب الشطرنج ، انظر إن الفرنجة قادمون ، فسأله كربوغا : أهم قادمون للقتال ؟ فأجابه مجير الدين : لست متيقنا من ذلك حتى الآن ، ولكن امهلني قليلا ، وعندما رأى مجير الدين رايات قادتنا مرفوعة في الجانب الآخر تتقدم بشكل حربي وتزحف خلفها الأرتال بصفوف متراصة بنظام عسكري ، سارع بالعودة وقال لكربوغا : أعتقد أن المعركة واقعة ، ولكن تريث قليلا ، فأنا لا أميز بين الرايات التي أراها ، وبعد التدقيق والتمحيص شاهد راية أسقف لى بوي تتقدم في الفيلق الثالث .

شعر :

وبلا ابطاء قال لكربوغا :
خذ حذرك لقد حضر الفرنجة ، فاهرب الآن او حارب بشجاعة لانني أرى علم البابا يتقدم .

انتفض الآن حتى لايهزمك هؤلاء الذين اعتقدت انك تبيدهم وتزيلهم عن وجه الأرض .

فقال كربوغا : سأبعث رسولا للفرنجة يخبرهم انني سأمنحهم اليوم كل ماطلبوه مني بالأمس ، فقال مجير الدين : لقد فات الأوان على هذا الكلام ، ومع هذا بعث كربوغا بطلبه ، غير أنه لم يحظ بما ابتغى ، أما مجير الدين فسرعان ماانسحب من حضرة سيده ولكز فرسه ، وفكر بالانسحاب ، غير أنه حرض رفاقه على أن يحاربوا ببسالة وأن يطلقوا سهامهم .

المعركة ـ انتصار المسيحيين وفرار الأتراك :

كان هيوج العظيم وروبـرت كونت نورمـاندي ، وروبـرت كونت الأراضي المنخفضة يقـودون الصـف الأول في الهجـوم ، وتبعهـم غودفري في الصف الثاني ومعه الألمان واللوثارنجيون ، وأتى بعدهم أدهمر أسقف لى بوي مع رجـال الكونت ريمـوند والتـاسكونيين ، والبروفسانسيين ، فقد تخلف الكونت نفسه في المدينة لحمايتها ، ثم حشد بوهيموند الجموع المتبقية بكل مهارة في الساقة .

وعندما رأى الأتراك صفوفهم وقد اخترقها هجوم جيش الفرنجة برمته ، أخذوا يتدافعون إلى الأمام فرادى ليطلقوا النشاب حسـب عادتهم ، غير أن الرعب المميت النازل من السماء القي في قلوبهـم ، فأمعنوا جميعا بالفرار كما لو أن العالم كله قد سقط عليهـم ، وهنا طارد الفرنجة الهاربين وتعقبوهم بأسرع ماأستطاعوا .

ولكن لما كانت خيول الفرنجة قليلة العدد وهزيلة انهكها الجوع ، فإنهم لم يتمكنوا من أسر سوى عدد صغير من الكفار ، بيد أن خيام الأتراك ظلت منصوبة على حالها في معسكرهم ، وقـد وجـد فيهـا الفرنجة ذخائر وحـاجيات مـن مختلف الأنواع كالذهـب والفضـة والأردية والثياب المتنوعة والأوعية وأشـياء أخـرى كثيرة خلفهـا الأتراك أو القوها فزعا أثناء فرارهم المضـطرب ، وكان هناك على سبيل المثال : خيول وبغال وحمير وعمائم فـاخرة وقسي وسـهام و جعب .

ومر كربوغا فارا برشاقة كالغزال ، وهو الذي طالما ذبح الفرنجة وقتلهم بالكلام والوعيد والتهديد ، ولكن لماذا فر ذلك الذي ملك جيشا عظيما ، وكان معه كل هؤلاء الفرسان المدججون ؟ لأنه تجـرأ على تحدي الرب ، الرب الذي شاهد من بعد رعونة كربوغا وتبجحه فدمر قوته تدميرا وسحقها سحقا .

وهرب من الأتـراك الذين امتلكوا خيولا سريعـة وقـوية ، أمـا ماسواهم فقد تركوا للفرنجة ، وقد أسر كثير من هؤلاء ولاسيما من الرجالة الشرقيين ، ومن جانب آخر أصـيب عدد قليل مـن رجـالنا بجراح ، أما النساء اللواتي وجدن في خيام العـدو فإن الفـرنجة لم يمسوهن بأذى ، واكتفوا بأن بقروا بطونهن بالحراب .

وبصوت مفعم بـالبهجة أنشـد الجميع لعـظمة الرب ، فبرحمته الأبوية ، أنقذنا من أشد الأعداء قسوة نحن الذين وضعنا ثقتنا بـه عندما كنا في أشد محنة ، وفي أمس الحاجة ، فبطشه بعثر الأتـراك وهزمهم بعد أن كادوا يهزمون المسيحيين ، وعاد رجالنا إلى المدينة مسرورين وقد أغنتهم الغنائم التي سلبوها من الأعداء .

شعر :

عندما سقطت مدينة أنطاكية القديمة .
كان التاريخ يقل سنتين عن الألف والمائة

بعد تجسيد مولانا الذي ولدته العذراء في شارة الجوزاء
عندما أشرقت الشمس ضعف التسعة

وفي أوائل آب توفي أدهمـر ، لتحـل روحـه في سـلام سرمدي ـ آمين . ثم عاد هيوج العظيم إلى القسـطنطينية ، (١) ومنها ذهب إلى فرنسا .

وأرسلت هذه العصبة الكريمة من القادة الرسالة التالية إلى بابا روما بخصوص ماحدث : إلى فائق التبجيل مولانا البابا أوربان .

من بوهيموند ، وريمـوند صـنجيل ، وغودفـري دوق اللورين ، وروبرت كونت نورماندي ، وروبرت كونت فلاندرز ، ويوستاس دى بوليون .

تحية وبعد :

عبودية مخلصة وخضوعا صادقا للمسيح حسبما يتوجب على الأبناء لأبيهم الروحي . إننا نرغب ونتمنى أن نحيطكم علما أننا برحمة وافرة من الرب ، وبمعونته الجلية ، استولينا على مدينة أنطاكية ، وقد انهزم الأتراك الذين لطخوا بالكراهية سيدنا يسوع وقتلوا ، وإننا كحجاج ليسوع المسيح إلى القدس قد انتقمنا لجراح الرب القدير ، وإننا بعدما حاصرنا الأتراك ، وقعنا تحت حصار أتراك أخرين قدموا من خراسان والقدس ودمشق ، وأمكنة كثيرة أخرى ، وقد تم خلاصنا برحمة يسوع المسيح .

وكان بعد الاستيلاء على بقية أن تغلبنا ـ كما سمعت ـ على حشود هائلة من الأتراك نازلناها في تموز عند دور يليوم ، وهزمنا سليمان الجبار وانتزعنا منه كل أراضيه وأملاكه ، وبعد امتلاكنا لكل رومانيا(الأناضول) وإخضاعها لنا تقدمنا إلى حصار أنطاكية ، ولقد تحملنا أثناء الحصار الكثير من المصاعب خاصة بسبب هجمات الأتراك المجاورين والكفار التي كانوا يشنونها علينا مرارا وتكرارا بأعداد غفيرة ، حتى صدق القول : إننا كنا محاصرين من قبل الذين كنا نحاصرهم في أنطاكية .

وبعد الانتصار في جميع المعارك ، وبعدما حاز الدين المسيحي المجد بهذه الانجازات ، توصلت أنا بوهيموند إلى اتفاق مع (أرمني) من رجال الأتراك سلم إلي المدينة ، وقبل مطلع فجر الثالث من حزيران وضعت السلالم على سور المدينة التي كانت تقاوم المسيح ، وذبحنا يغي سغان طاغية المدينة مع عدد كبير من جنده ، واحتفظنا بزوجاتهم وأولادهم وأسرهم وذهبهم وفضتهم وكل مقتنياتهم وأملاكهم .

غير أننا لم نستطع احتلال قلعة المدينة التي كان الأتراك قد حصنوها ، وعندما أتممنا استعداداتنا لاقتحامها في اليوم التالي

شاهدنا أعدادا لاتحصى من الأتراك تتحرك في جميع أرجاء المنطقة ، وكنا لأيام خلت نتوقع حضورهم ونحن مـانزال خـارج المدينة ، وفي اليوم الثالث لامتلاكنا المدينة ضربوا الحصار حولنا ، ودخل اكثر من مائة الف منهم من القلعة السالفة الذكر أملين أن يندفعوا من أبوابها إلى قسم من المدينة تحتها ، كان بعضه معنا وبعضه الآخر معهم .

غير أننا تمكنا من موقع لنا على مرتفع اخر مقابل للقلعـة ، مـن حماية الممر بين الجيشين ، وهو المؤدي إلى المدينة حتى أن الأتراك بأعدادهم الهائلة لم يستطيعوا اقتحـام الممـر ، وحـاربنا داخـل الأسوار وخارجها ليلا ونهارا ، وأخيرا ارغمنا العدو على التقهقـر إلى معسكره عبر بوابة القلعة المفضية إلى المدينة .

وبعدما تبين لهم أنهم لن يستطيعوا الحاق الأضرار بنا مـن ذلك الجانب ، احاطوا بنا من جميع النواحي ، إلى حد أن أحدا لم يعـد بإمكانه الخروج أو الدخول إلى المدينة ، وقد ثبـط ذلك مـن عزائمنا وبث الكآبة في نفوسنا ، حتى أن العديد منا ، وقد أهلكنا الجوع مـع المحن الأخرى ، ذبحوا خيولهم وحميرهـم التـي كانت تمـوت مـن الجوع والتهموها .

وفي تلك الأثناء ، وبإطلالة رفق ورحمة من الرب القدير ، وبعـون منه ، عثرنا على الحربة المقدسة التـي طعـن بهـا لونجنيوس جنب مخلصنا ، وقد تجلى القديس أندروز ثلاث مـرات لواحـد مـن عبيد الرب وأراه المكان الذي رقدت فيه الحربة المقدسة ، في كنيسة المبارك بطرس ، أمير الرسل ، وقد استمددنا الطمأنينة والقـوة مـن هـذا الاكتشاف ومن غيره من الايحاءات ، فبعد أن استولت علينا الكآبـة واستبد بنا الوجل ، أصبح الواحد منا يحـث زميله بـكل شـجاعة وتحفز على القتال .

وبعدما تحملنا الحصار لمدة ثلاثة أسابيع وأربعة أيام ، اعتـرفنا

بذنوبنا وأوكلنا نفوسنا للرب ثم انطلقنا من أبواب المدينة في ليلة عيد القديسين بطرس وبولص (٢٨ حزيران ١٠٩٨) في تشكيل قتالي ، وكان عددنا قليلا جدا إلى حد أن العدو لم يظن أبدا أننا سنحاربه بل سنهرب .

وعندما تمت جميع هذه الاستعدادات ، واصطف رجالتنا وفرساننا في تشكيلة المعركة بكل نظام ، تقدمنا بكل بسالة نحو قلب قوة الأعداء وأجبرناهم على الفرار من مواقعهم المتقدمة ، غير أنهم كعادتهم تشتتوا في جميع الاتجاهات ، وأرادوا تطويقنا باحتلالهم التلال والمنافذ حسب طاقتهم ، وأملوا بذبحنا بهذه الطريقة ، ولكن وكنا قد خبرنا حيلهم والاعيبهم هذه في معارك سالفة ، استطعنا ونحن الأقل عددا أن نحبط خططهم ، وذلك بفضل الرب ورحمته ، وأرغمناهم على التجمع ، وبيد الرب اليمنى تقاتل معنا ، أجبرنا الاتراك بعد تجمعهم على الفرار ومن ثم التخلي عن معسكراتهم وكل ماكانت تحويه .

وطاردنا الأتراك ، بعدما هزمناهم ، طوال اليوم وقتلنا الافا مؤلفة منهم ، ثم عدنا إلى المدينة سعداء مسرورين ، وإثر هذا سلم ابن مروان القلعة السالفة الذكر إلى بوهيموند ومعها الف رجل ، وقد تنازل عن هؤلاء الرجال إلى بوهيموند راضيا ، فاعتنقوا الديانة المسيحية ، وهكذا خلص مولانا يسوع المسيح انطاكية وسلمها إلى ديانة روما .

وبما أن الأحزان غالبا ما ترافق الأفراح ، فقد توفي اسقف لى بوي ، الذي كنتم قد بعثتم به إلينا وكيلا ، وحدثت وفاته في أول آب ، وجاء ذلك بعد المعركة التي شغل فيها دورا مبرزا وبعدما خضعت المدينة لنا .

ولهذا نسألك الآن ونحن أولادك الذين فجعوا بفقدان أبيهم الذي أوكلت بنا إليه ، ولما كنت وأنت والدنا الروحي ، قد افتتحت بنفسك

هذا الحج ، وجعلتنا بعظاتك نترك بلادنا وكل مافيها ، وبما أنك قد حرضتنا على السير على طريق المسيح بحمل الصليب و حثثتنا دوما على تمجيد اسم المسيح حسبما كنت تبشر ، فإننا نتوسل إليك أن تقدم إلينا ، وأن تحرض كل من يستطيع ان يقدم معكم إلينا ، فهنا منشأ المسيحيين (أعمال الرسل : ١١/ ٢٦) وبعدما جلس بطرس المقدس على العرش في الكنيسة التي نرى اليوم ، أصبح الذين كانوا يدعون في الماضي (أعمال الرسل : - ١١/ ٢ - ٧) جليلين يدعون الآن النصارى ، فهل في هذه الدنيا ما هو انسب من أن تقدم أنت ، وأنت الأب لهذه الكنيسة و الرأس ، إلى هذه المدينة الرئيسة ، حاضرة الاسم المسيحي ، و تختم هذه الحرب التي هي مشروعك بنفسك .

لقد أخضعنا الأتراك و الكفار ، و أما الهراطقة من الأغريق و الأرمن و السريان و اليعاقبة ، فلم نتمكن من اخضاعهم ، لهذا نعاود السؤال في أن تقدم أنت يا أبانا العزيز كأب و رأس الى موطن اسلافك ، و أن تجلس أنت ، و أنت خليفة القديس بطرس ، على عرشه ، و أن تستخدمنا كأبنائك المطيعين في أداء المهام التي تراها ،و أن تمحق بسلطانك و تدمر بقوتنا جميع الهرطقات بكافة انواعها ، و هكذا تكمل معنا حجة يسوع المسيح التي أخذناها على عاتقنا بعد أن ناديت بها ، و تفتح لنا أبواب القدس ،و القدس الأخرى ، و تحرر كنيسة قيامة الرب ، و تمجد اسم المسيحيين فوق جميع الأسماء ، لأنك إن حضرت معنا و أتممنا الحجج الذي افتتحت فإن العالم بأسره سيدين لك بالطاعة .

لعل الرب الأزلي الوجود ، الذي سيحكم في الديمومة يلهمك أن تفعل ذلك : آمين

الحملة على مدن أخرى - حصار عرقة - رحلة الفرنجة إلى القدس ووصولهم إليها :

بعدما هد تعب الأيام الطوال رجالنا و خيولنا ، استجموا و استراحوا اربعة اشهر في احواز انطاكية حتى استردوا عافيتهم ، و بعد شيء من المداولات زحف جزء من الجيش إلى داخل بلاد سورية و ذلك بقصد تأجيل الزحف على القدس ، و قاد هذا الجزء بوهيموند و الكونت ريموند ، و بقي بقية الأمراء على مقربة من انطاكية.

و استولى هذان القائدان مع رجالهما على مدينتي البارة ومعرة النعمان بعدما اظهروا شجاعة هائلة في القتال ، وقد استولوا على المدينة الأولى بسرعة فائقة ، و ابادوا سكانها عن بكرة ابيهم ، و استولوا على كل ما وجدوه فيها ، ثم اندفعوا نحو المدينة الثانية ، و حاصروها لمدة عشرين يوما عانى اثناءها رجالنا من الجوع الشديد ، و يقشعر بدني و انا اذكر ان عددا كبيرا من رجالنا ، و قد هدهم الجوع و عذبهم إلى حد الجنون ، قطعوا لحم العجز من جثث المسلمين المطروحة و طبخوه واكلوه ، لا بل التهموا اللحم بوحشية قبل ان يتم طهيه ، وهكذا فإن الضرر اصاب الذين قاموا بأعمال الحصار اكثر من المحاصرين .

و في تلك الأثناء اتم الفرنجة صنع الآلات الحربية على حسب الاستطاعة ، و دفعوها إلى محاذاة الأسوار ، وببركة من الرب و معونة عبروا فوق هذه الآلات في هجوم بالغ الجراة ، و في اليوم التالي ابادوا قتلا جميع المسلمين من اعلاهم الى ادناهم و استولوا على ممتلكاتهم اجمع.

وبعدما دمرت المعرة على هذه الصورة رجع بوهيموند إلى انطاكية ، حيث طرد منها رجال الكونت ريموند الذين كان قد خلفهم فيها لحماية قطاعه منها ، وامتلك إثر هذا بوهيموند انطاكية ومجمل

المنطقة المحيطة بها ، بحجة أن المدينة تم الاستيلاء عليها بفضل مفاوضاته وحيلته ، ونتيجة لذلك ضم الكونت ريموند إليه الكونت تانكرد واستأنفا الرحلة نحو القدس ، وإثر هذا انضم روبرت كونت نورماندي إلى هذه القوات ، وذلك في اليوم الذي أعقب رحيلهم من معرة النعمان

وفي عام ١٠٩٩ لتجسيد مولانا المسيح زحفت هذه القوات متقدمة نحو مدينة عرقة المنيعة والواقعة على سفح جبل لبنان ، وقد قرأنا أن مؤسسها كان أراكيوس بن كنعان وحفيد نوح ، وبما أن الاستيلاء عليها كان صعبا جدا ، فقد ألفينا عليها الحصار لمدة خمسة أسابيع دون أن ننجز شيئا ملحوظا .

وسار الدوق غودفري وروبرت كونت الأراضي المنخفضة خلف جيشنا ولم يكونا بعيدا جدا عنه ، فقد حاصرا مدينة جبلة الحصينة ، وآنذاك تسلما رسالة من الجيش يطلب العون في حصار عرقة ، فتخليا عن جبلة فورا ، وخفا لنجدة الجيش ، غير أنه بعدما حوصرت عرقة لم تقع معركة كبيرة كما كان متوقعا .

وأخذ الفرنجة بعد هذا في التداول فيما بينهم ، فارتأوا أن ضررا كبيرا لايرتق سيحيق بهم جميعا إن هم أطالوا فترة مكوثهم حيث هم وأخفقوا في الاستيلاء على عرقة ، وأخيرا استقر رأيهم على رفع الحصار عن عرقة ومتابعة الزحف ، ومع أن طريقهم كانت خالية من حركة المرور التجارية الا أنه كان مايزال هناك متسع من الوقت لوصولهم إلى القدس أيام الحصاد ، ولو أنهم شرعوا الآن بالزحف ولم يتماهلوا سيكون بامكانهم أن يقتاتوا على الحصاد في كل مكان ، وعلى الأغذية التي يزودهم الرب بها ، فبقيادته يمكنهم الوصول إلى غايتهم المنشودة ، وتبني هذا الرأي واتخذ قرارا بذلك

وبعدما قوضوا المعسكر شرعوا بالرحيل ، فمروا أولا بمدينة

طرابلس ، ثم واصلوا زحفهم حتى جبيل ، فكانوا أمام قلعتها في شهر نيسان ، وبدأوا يقتاتون على الحصاد ، وقد تابعوا زحفهم فمروا على مقربة من مدينة بيروت ، حتى وصلوا إلى مدينة اسمها بلغتنا صيدا ، وهي في أرض الفينيقيين ، كان قد بناها صيدون بن كنعان الذي جاء من سلالته الصيداويون ، ومن صيدا هبط رجالنا إلى الصرفند ثم إلى صور ، وهي مدينة رائعة حقا ، ومنها إلى أوبليا التي قرأنا عنها وعن هاتين المدينتين قال المبشر « في نواحي صور وصيدا » (متى ١٥ / ١٢) ويدعو سكان المنطقة هذه احداها باسم ساجيتا والثانية صور وفي العبرانية سور .

ثم وصلوا إلى قلعة تدعى الزيف (الزيب ١٤ كم شمالي عكا) تبعد ستة أميال عن بطولومي (عكا) ثم مروا من أمام بطولومي التي تعرف باسم عكا (عكو) من قبل ويخطىء بعضهم فيسميها عكرون ، ولكن هذه مدينة فلسطينية على مقربة من عسقلان بين يبنا وأشدود ، وفي حقيقة الأمر يحد عكا من الجنوب جبل الكرمل ، وبعد تجاوزهم مر رجالنا ببلدة اسمها حيفا وقعت إلى يمينهم ، ثم اقتربوا من دورا ، وبعدها من قيسارية فلسطين التي كانت تدعى من قبل باسم « برج ستراتون » ففيها مات هيرود أغريبا ـ حفيد هيرود الذي ولد المسيح في أيامه ـ ميتة بائسة حيث أكلته الديدان (أعمال الرسل : ١٢ ـ ٢) .

وزحف الفرنجة بعد هذا والبحر ومدينة أرسوف إلى يمينهم ، ودخلوا إلى مدينة الرملة وكان سكانها من المسلمين قد هجروها قبل ذلك بيوم ، وعثر فيها الفرنجة على كميات من القمح حملوها على ظهور دوابهم ونقلوها إلى القدس .

وبعد توقف لمدة أربعة أيام اختاروا خلالها اسقفا لكنيسة القديس جرجس ، وعينوا حامية للدفاع عن البلدة استأنف الفرنجة زحفهم نحو القدس ، ووصلوا في ذلك اليوم إلى عمواس قرب مودين مدينة المكابيين

وفي اليوم التالي امتطى مائة من افضل الفرسان خيولهم ، ومـروا قبيل الفجر على مقربة من القدس ، ثـم سـاروا مسرعين إلى بيت لحم ، وكان بينهم تانكرد وبلدوين ، وعندما اكتشف النصارى مـن ابناء المنطقة من الأغريق والسريان ان الفرنجة قد وصـلوا شـعروا بالسعادة والسرور مع انهم في بادىء الأمر لم يعرفوا من كان هؤلاء فقد خيل إليهم أولا انهم ترك او عرب ، لكن عندما راوهم عن قرب ، وتيقنوا أنهم فرنجة طاروا فـرحا ، وحملوا على الفـور صـلبانهم وخرجوا للترحيب بهم وهم يبكون وينشدون بخشوع ، بكوا خشـية لأن عددا بهذه القلة من الناس يمكن بسهولة القضاء عليه على ايدي الجموع الغفيرة من الكفـار الذين كانوا قـد عرفـوا بـوجودهم في المنطقة ، وانشدوا لأنهم رحبـوا بقـدوم الذين لطـالما تـطلعوا إلى حضورهم لأنهم شـعروا انهـم سـيعيدون إلى الديانة المسـيحية الاعتبار التي هي جديرة به بعدما طال انتهاك الكفار لها .

وبعدما ابتهلوا بخشوع للرب في كنيسة مريم المبـاركة وزاروا مهـد تجسيد المسيح ، وأعطوا قبلة السلام للسريان،سارعوا عائدين نحو القدس ، المدينة المقدسة ، .

انظر لقد ظهرت بقية الجيش وهي تقترب مـن المدينة ، وكانوا قـد مروا بالجيب (جبعون) وهي على يسارهم ، وهي تبعد خمسـين استادا (١٠ كم) عن القدس ، وفي الجيب أعطى يشـوع اوامـره للشمس والقمر (يشوع : ١٢/١٠ ـ ١٣) وعندمـا رفـع رجـال الطليعة اعلامهم ورياتهم هـاجمهم سـكان المدينة بـالحال بيد أن هؤلاء الذين أسرعوا بالخروج من المدينة ردوا على أعقـابهم إليهـا بسرعة أكبر .

شعر :

كان حزيران مشعا بحرارة الشمس السابعة عندما القى الفـرنجة الحصار على القدس .

موقع القدس :

تقوم القدس في منطقة جبلية جرداء خالية من الأشجار والينابيع والجداول باستثناء عين سلوان ، التي تبعد مقدار غلوة عن المدينة والتي يتوفر فيها الماء حينا ويشح حينا اخر بسبب قلة المجاري ، وتنبع هذه العين في الوادي على سفح جبل صهيون من تيار جدول قدرون .

ويطفو هذا الجدول بالعادة ويفيض في الشتاء من قلب وادي يهوشافاط .

وتحتوي الأحواض والصهاريج الكثيرة داخل المدينة على كميات كافية من المياه ، ذلك انها تمتلأ عادة بأمطار الشتاء ، كما وكان هناك أحواض أخرى خارج المدينة لسقاية الناس والحيوانات

ومن المسلم به أن القدس مدينة منبسطة انبساطا متوائما ، وهي ليست بالصغيرة أو الكبيرة ، عرضها من السور إلى السور مقدار أربع غلوات سهم ، ويقع في غربيها برج داود الذي تحفه الأسوار من الجانبين ، وفي الجنوب منها يقع جبل صهيون وذلك على بعد أقل من غلوة سهم ، ويقع في شرقيها جبل الزيتون وذلك على قرابة الف خطوة خارج المدينة ، ولقد بني برج داود هذا من حجر صلد ، وفي نصفه العلوي قوالب ضخمة مربعة مختومة بالرصاص المصهور ، ويمكن لخمسة عشر أو عشرين من الرجال الدفاع عن هذا البرج ضد هجمات أي عدو إذا ما توفر لهم ما يكفي من غذاء .

ويقع في وسط المدينة نفسها هيكل الرب ، وهو مستدير الشكل ، وقد أقيم حيث شيد سليمان في قديم الزمان هيكله الرائع ، ومع انه لا تصح مقارنة الهيكل الحالي بالقديم ، غير أن منظره بهي رائع يدل على مقدرة مذهلة بالاعمار .

وكنيسة القيامة أيضا مستديرة الشكل ، تـركت ذروتهـا مفتـوحة لتسمح للضوء بالدخول من كوة دائمة أجاد في بنائهـا بناء مـاهر ، وليس لدي المقدرة ، كما لا أجرؤ ، ولا أعرف كيف أعدد ما فيها من ذخائر فضلا عما حوته في الماضي ، أقول هذا حتى لا أخدع أو أضلل الذين يقرأون أو يسمعون عن هذه المسألة .

وبعدما دخلنا الهيكل ، ولمدة خمسة عشر عامـا إثـر ذاك ، قـامت هناك صخرة في وسطه ، قيل إن تابوت العهد ومعه السكينة وصحف موسى قد حفظت في داخلها ، وأن يوشع ملك يهوذا قد أمر بـوضعها هناك قائلا « لن تتمكن من نقلها مـن هـذا المكان » ، ذلك أنه تنبـأ بحادثة السبي المستقبلية ،

غير أن هذا يتعارض مع ما نقرأه من وصف في كتاب المكابيين الثاني أنه قد أخفاها في بلاد عربه بنفسه قائلا : إنها لن تـكتشف حتـى يجتمع خلق كثير ، وكان أرميا معاصرا ليوشع غير أن الملك يوشـع مات قبل أرميا .

وروي أن ملاك الرب وقـف أمـام الصـخرة المذكورة (صـموئيل الثـاني : ٢٤ / ٨ ـ ٢٥) وأهلك الناس بسـبب ذنب داود في احصـائهم ممـا أغضـب الرب (صـموئيل الثاني : ١٢٤ / ٢ ، ١٥ ـ ١٧) ولما كانت هـذه الصـخرة قـد شوهت الهيكل فقد تمت تغطيتها بتبليطها بالرخام ، وقد وضـع الآن فوقها مذبح ، وعليه أوقف الكهنة جـوقة المرتلين ، وكان المسـلمون يكنون فائق الاحترام لمعبد الله هذا ، وقد فضلوا أداء صـلواتهم فيه على أي مكان آخر ، مع أن صلاتهم ذهبت سدى لأنها قـدمت لوثـن نصب اسمه محمد (صلى الله عليه وسلم) ولم يسمحوا للنصارى بدخول الهيكل .

وهناك معبـد آخـر (المسـجد الأقصى) رائع البنيان ، وفخـم الشـكل ، يدعى هيكل سـليمان مـع أنه ليس الهيكل الذي شـيده

سليمان ، ولم نستطع بسبب ضيق ذات اليد ، أن نحافظ عليه في الحالة ذاتها التي وجدناه عليها ، ولذلك تلف جزء كبير منه .

وكان هناك مجار في شوارع المدينة يغسل فيها ماء المطر كل الأوساخ ويجرفها ، وكان الامبراطور اليوس هادريان قد زين هذه المدينة وزادها روعة وبهاء ، وجمل شوارعها وميادينها بالأرصفة ، وقد سميت القدس نسبة إليه « ايليا » ، ولهذا السبب ولأسباب أخرى كثيرة عظم شأن القدس واشتهر صيتها .

حصار مدينة القدس :

بعدما رأى الفرنجة القدس ، أدركوا صعوبة احتلالها ، لذلك أمر قادتنا بصنع أبراج خشبية عالية ، وقد أملوا أن يدخلوا إلى القدس - بعون الرب - بنقل هذه الأبراج إلى محاذاة الأسوار ونصبها هناك والتسلق عليها إلى أعالي السور بهمة ونشاط وتم بناء الأبراج ، وأصدر الأمراء الأوامر بالهجوم في اليوم السابع لتاريخ وصولهم ، وبعدما صدحت الأبواق في الصباح هاجم رجالنا المدينة من جميع الجوانب بعزيمة جبارة ، وبعدما ثابروا على الهجوم حتى الساعة السادسة من النهار ، ولم يتمكنوا من دخول المدينة . أسطة الأبراج لقلتها توقفوا عن متابعة القتال وعادوا على مضض

وبعد التداول حول الأمر أمر القادة المهندسين ببناء الات أخرى للقتال ، أملين أن تحقق لهم - بعون الرب - مبتغاهم اذا ما تم الصاقها بالأسوار ، وقد تم تنفيذ ذلك .

ولم يعان رجالنا من نقص الخبز واللحوم ، وانما شقوا وعانوا هم ودوابهم من جفاف المنطقة وخلوها من الجداول وشح المياه فيها ،

لذلك نقلوا المياه بكل مشقة من المناطق المجاورة على مسافة أربعة أميال أو خمسة حسبما تيسرت الأمور .

وبعدما تم اعداد الآلات من مجانيق وأكباش وابراج ، بدأ رجالنا بالاستعداد للهجوم على المدينة مرة ثانية ، وكان من جملة ما أبدعوه لخدمة أغراضهم ، برجا من أخشاب قصيرة حيث لم تتوفر لهم أخشاب طويلة في تلك الأحواز ، ونقلوا أجزاء البرج إثر اصدار الأوامر ليلا ، ثم ركبوه في مواجهة المدينة في الصباح التالي ، ووضعوا معه الأكباش والمجانيق التي أعدوها ، وبعدما حضروه وغطوه من الخارج بجلود الحيوانات لحمايته من النيران ، دفعوه رويدا رويدا إلى محاذاة الأسوار ، وباشارة صدحت بها الأبواق ، تسلق عدد صغير من خيرة المقاتلين وأشدهم شكيمة البرج ، غير أن المسلمين كانوا قد أقاموا وسائل للدفاع ضدهم ، وأطلقوا من المجانيق بقذائف ملتهبة مغموسة بالزيت والشحوم ، ووقعت هذه القذائف على البرج وعلى من فيه ، ولهذا هلك العديد من الطرفين في القتال .

وشن ريموند ورجاله من موقعهم على جبل صهيون هجوما عنيفا مستخدمين الاتهم الحربية ، ومن الطرف الآخر شن رجال الدوق غودفري وروبرت كونت نورماني ، وروبت كونت الأراضي المنخفضة أعنف هجوم على السور وأقساه ، لكن انقضى اليوم دون المزيد من المحصلات .

وتابعوا في اليوم التالي القتال على زعيق الأبواق المهمة ذاتها بعزيمة أقوى وهمة أشد ، ولذلك فتحوا ثغرة في السور في مكان واحد بعد دكة بالأكباش ، وكان المسلمون قد نصبوا عمودين من الخشب أمام فتحة وجدت في أعلى السور ، وقد ربطوهما بالحبال لتكون بمثابة ستارة تحميهم من الحجارة التي كان يقذفها المهاجمون ، ولم يخيل إليهم أبدا أن ما أقاموه لخدمة أغراضهم سينقلب ضررا فيما بعد وذلك بأذن من القدرة الربانية ، حيث أنه عندما دفع الفرنجة

البرج المذكور إلى ملاصقة السور ، استخدموا سيوفهم القصيرة لقطع الحبال التي علق بها العمودان ، وجعلوا من هذين العمودين جسرا مدوه ببراعة من البرج إلى أعلى السور .

وفي تلك الأثناء ، كان رجالنا يقذفون بالمقذوفات المشتعلة على السور ، فتعلقت النيران في أحد ،ابراج السور الحجرية والتهمت كميات من الحطب والأخشاب كانت حول البرج ، وتصاعد الدخان واشتدت الحرائق فلم يستطع أحد من الحراس الذين كانوا هناك البقاء أمام النيران طويلا .

وسرعان ما دخل الفرنجة المدينة بكل روعة في ظهر ذلك اليوم الجليل الذي فدى فيه يسوع المسيح العالم بأسره وخلصه على الصليب ، وخلال زعيق الأبواق والضجيج والجلبة الشديدة ، شددوا هجومهم واندفعوا ببسالة وهم يصرخون « ساعدنا يا رب » ، وبادروا إلى رفع راية لهم على ذروة الأسوار ، فدب الرعب القاتل في قلوب الكفار ، واستبدلوا شجاعتهم السالفة بالخوف والفرار في أزقة المدينة وطرقاتها الضيقة ، وكانوا كلما أمعنوا بالفرار كلما اشتدت أعمال مطاردتهم ومحقهم .

وللوهلة الأولى لم يعرف الكونت ريموند ورجاله ، الذين كانوا يضيقون الخصار ويشددون الهجوم من ناحية أخرى من المدينة ، كنه ما يجري ، غير أنهم عندما شهدوا المسلمين وهم يقفزون من أسوار المدينة ، وعندما أدركوا ذلك اندفعوا وهم في ذروة الابتهاج فدخلوا إلى المدينة بأسرع ما أمكنهم ، وانضموا إلى رفاقهم يطاردون الأعداء الأشرار ويذبحونهم بدون توقف . وفر بعض العرب والسودان إلى برج داود ، وانحشر آخرون في هيكل سليمان ومعبد الرب ، وفي فناء هذا البنيان شن رجالنا هجوما عنيفا على المسلمين ، الذين لم يكن لهم من سيوفنا مفر .

أما المسلمون الذين صعدوا إلى سقف وقبة هيكل

سليمان (المسجد الأقصى) فقد أطلق عليهم الشباب ، فخروا صرعى وتساقطوا على رؤوسهم ، وقد قطعت رؤوس ما يقرب من عشرة آلاف شخص في هذا الهيكل ، ولو كنت هناك لتلطخت قدماك حتى الكواحل بدماء القتلى ، ثم ماذا أقول ؟ أقول : لم يبق منهم أحد ، ولم يرحموا طفلا ولا امرأة .

الأسلاب التي حصل عليها النصارى

كم كانت دهشتك عظيمة لو أنك شاهدت رجالنا من الرجالة وحملة الدرق ، يبقرون بطون من ذبحوا من المسلمين ـ بعدما اكتشفوا الاعيبهم ـ ليستخرجوا من بطونهم الدنانير الذهبية التي كانوا ابتلعوها وهم ما يزالون على قيد الحياة ، وللغاية نفسها ، جمع رجالنا بعد بضعة أيام كومة عظيمة من الجثث وأحرقوها حتى صارت رمادا حتى يسهل عليهم الحصول على الذهب .

ثم اندفع تانكرد نحو هيكل الرب فجرده من كثير من الذهب والفضة والأحجار الكريمة التي كانت فيه ، غير أنه أعادها أو وضع ما يساويها في ذلك المكان المقدس ، ثم إن العبادات لم تعد تعقد هناك منذ ذلك الحين ، وكان المسلمون قد مارسوا فيه عباداتهم الوثنية بشعائر خداعة ، وكانوا أيضا لا يسمحون للنصارى بالدخول إليه .

شعر :

وبسيوف مشهورة سعى رجالنا في المدينة
لا يبقون على أحد حتى الذين يستجدون الرحمة
وتساقط الجميع مثلما يتساقط التفاح المتعفن
من الأغصان المهزوزة أو جوز البلوط من الشجر المتمايل

مكوث النصارى في القدس :

وبعد هذه المذبحة الهائلة ، دخلوا إلى بيوت الأهلين فتملكوا كل ما وجدوه فيها ، وتفاهموا على ترتيب خاص أن أول من يدخل إلى واحد من البيوت سواء أكان بيت موثر أو بيت فقير فلن يعترض عليه أحد من الفرنجة ، ويحق له سكنى ذلك البيت وتملكه حتى وإن كان قصرا ، والاستحواذ على كل ما فيه والتصرف به كما لو كان بيته حقا ، وهكذا اتخذوا قرارات التملك ، وبهذه الواسطة غدا العديد من الفقراء أثرياء .

ثم توجه رجال الدين والعامة نحو كنيسة القيامة كذلك قصدوا هيكل الرب المجيد ، وساروا في موكب وانشدوا ترتيلة جديدة بصوت مفعم بالبهجة ، وقدموا الصدقات والابتهالات الخاشعة تملأ صدورهم ، ثم زاروا الأماكن المقدسة والغبطة تهزهم كما لو أنهم كانوا يودون لو فعلوا هذا منذ زمن بعيد .

ياله من يوم لطالما تحرقنا شوقا إليه : يا وقتا هو أحرى الأوقات بالذكرى ، ويا انجازا فوق كل انجاز ، لقد تمنينا هذا اليوم ، فقد كانت تعتمل الرغبة الجامحة في نفوس جميع المؤمنين بالديانة الكاثوليكية ، بأن يعاد هذا المكان إلى جلاله السرمدي ، لأنه المكان الذي اختاره خالق المخلوقات جميعا ، الرب الذي تجسد انسانا رحمة من رحماته للانسان ، و أضفى بتسجيده و موته و صعوده عليه منحة الخلاص ، أن يعاد هذا المكان على أيدي الذين آمنوا به ووثقوا ، فلقد تمنوا تطهير هذا المكان من الوباء بعدما دنسه سكانه بخرافات الوثنيين.

حقا إنه زمان جدير بالذكرى ، وذلك لأنه بالفعل تستعاد في هذا المكان ذكرى كل ما انجز أو علم على الأرض ربنا الاله يسوع المسيح وهو كرجل بين الرجال ، وتتجدد في مخيلة المؤمنين الصادقين

جميعا ، وسيخلد هذا الانجاز الذي اختـار الرب إتمـامه على أيدي شعبه وأولاده وأسرته الأحباء ، الذين انتقاهم لأداء هـذه المهمـة ، وستجري ذكراه على السنة جميع الأمم إلى ابد الأبدين .

تنصيب ملك في المدينة واختيار بـطريرك واكتشـاف صـليب الصلبوت:

في السنة الف ومائة ينقصها واحد.
من المولد العنزي للرب المجيد
بعدما أشرقت شمس تموز خمس عشرة مرة
استولى الفرنجة بعزيمتهم على مدينة القدس
وسرعان ما اتخذوا غودفري اميرا على بلدان ابائهم

واجمع رجال جيش الرب في المدينة المقدسة على انتخاب غودفري اميرا للدولة ليحميهم ويحكمهم وقد انتخبوه لأخلاقه النبيلة ومهارته الحربية وجلده ثم علاوة على ذلك لطلعته البهية وسامته.

ثـم أودعوا القـوانين في كنيسـة القيامـة وفي هيكل الرب لخدمته ، وقـرروا في ذلك الوقـت أن لا يعينوا بـطريركا وحتـى يستمزجوا رأي البـابا في رومـا عمن يرغب في تعيينه في مركز البطريركية.

والتمس في تلك الأثناء بعض الأتراك والعرب وحوالي خمسـمائة من السودان الذين كانوا قد اعتصموا في بـرج داود ، مـن الكونت ريموند الذي استقر على مقربة من البـرج ، أن يأذن لهـم بـالنجاة بأرواحهم إذا ما تخلوا عن أموالهم وتـركوها هناك ، فـأذن لهـم فانسحبوا الى عسقلان.

وبرضى من الرب تم في تلك الآونة العثور على قطعة صـغيرة مـن

صليب الصلبوت وكان قد أخفاها من زمن قديم بعض الرجال الصالحين في مكان سري ، واكتشفها الآن بارادة الرب رجل سرياني كان قد اخفا ها وحفظها بمعرفة من والده ، وحمل الجميع هذه القطعة ، وكانت على شكل صليب غطي جزء منه بالذهب والفضة ، الى كنيسة القيامة و منها الى الهيكل ، مرددين أناشيد النصر ، ومقدمين الحمد للرب الذي حفظ هذا الاثر الثمين عبر العصور لنا وله.

وصول الكفار وفرارهم:

بعدما سمع ملك باب اليون (القاهرة) وأمير قواته الأفضل بدخول الفرنجة الى البلاد للسيطرة على أراضٍ المملكة المصرية ، اصدر اوامره بحشد جموع العرب والعرب والسودان ، وبادر بالزحف للتصدي لهم وقتالهم ، وإثر وصول الأخبار الى الأفضل ، بوساطة الرسل ، التي تحدثت عن سقوط القدس بتلك الوحشية غضب كثيرا ، وسارع بالسير لقتال الفرنجة و حصارهم داخل القدس.

لما بلغت هذه الأخبار الى الفرنجة اعتمدوا خطة على درجة عالية من الجراة ، بأن زحفوا بقواتهم نحو عسقلان لحرب هؤلاء الطغاة ، وحملوا معه خشبة صليب الصلبوت ، وفيما كان الفرنجة في احد الأيام يستطلعون المنطقة حول عسقلان قبيل القتال ، عثروا على مغانم لا عد لها ولا حصر من الثيران والماشية والماعز ، وبعدما جمع رجالنا هذه الحيوانات قرب خيمنا آخر النهار ، اصدر قادتنا أمرا ملزما في أن لا يقود احد رجالنا الغنائم معه في اليوم المقبل ، حتى لا تعيق حركة الجيش وتحد من حريته في القتال.

وفي اليوم التالي عرف الفرنجة من رجال استطلاعهم أن الكفار

قد أخذوا بالزحف فقاموا ، بضبط جوانبهم ونظموا صفوفهم وارتالهم على الوجه الأفضل للمعركة ، ثم زحفوا نحو العدو بكل شجاعة وأعلامهم مرفوعة ، ولو كنت حاضرا لشهدت الحيوانات التى سلف ذكرها وهي تسير على يمين ويسار الحشد كما لو أنها كانت تطيع الأوامر ، مع أنه لم يكن يقودها أحد ، وعندما رأى الكفار كثافة حشدنا عن بعد ظنوه جيش الفرنجة الهائل ، ومع هذا تقدم الكفار واقتربوا من حشدنا بجموع لا تعد ولا تحصى ، وكانوا أشبه بوعل مندفع ليطعن بقرونه ، وبعثوا بكتيبتين من العرب لحصار ساقتنا ، مما دفع الدوق غودفري الى العودة االى الوراء برفقة كوكبه من الفرسان الدارعين ، فأنقذ الساقة ، وإثر هذا تقدم القادة الآخرون وكان بعضهم با لصف الأول وبعضهم الآخر بالصف الثاني.

وعندما دنا الجمعان من بعضهما بحيث لم يبق بينهما سوى قرابة رمية حجر أو أقل ، شرع رجالنا برمي النشاب على الأعداء الذين امتدت صفوفهم ، ثم ما لبثوا أن استبدلوا النشاب بالحراب ، وذلك عندما اندفع فرساننا ـ كما لو كانوا على اتفاق مسبق ـ وشنوا هجوما مدمرا ، وانقلبت أثناء القتال خيول الأعداء البطيئة على فرسانهم وطرحتهم أرضا ، وفي ساعة أو أقل فارقت أجساد كثيرة الحياة وتغيرت ألوانها وعلاها الشحوب.

وأمعن الأعداء بالفرار ، وفي تلك الأثناء تسلق بعضهم أعالي بعض الأشجار ، غير أنهم تلقوا وابلا من النشاب فسقطوا الى لقاء حتفهم بتعاسة ، وهلك المسلمون أثناء القتال العنيف في كل مكان ، أما الذين تمكنوا من النجاة ففروا عبر معسكرهم الى عسقلان ، المدينة التي تبعد قرابة سبعمائة وعشرين استادا عن القدس.

وولى الأفضل الأدبار وقرر الفرار بعد لقائه الأول مع الفرنجة ، علما أنه كان في ذلك الحين يشعر نحوهم

بالازدراء ، وهكذا تخلي عن خيمته مرغما ، وكانت مكدسة بالأموال وانواع النفائس ، وقصدها الفرنجة تملأهم نشوة الظفر ، ثم اجتمعوا وقدموا الشكر للرب وحمدوه ، ثم ولجوا الى خيام الأعداء فوجدوا ما أذهلهم من الثروات الملكية من الذهب والفضة والملابس والمجوهرات والأحجار الكريمة بمختلف أنواعها ، فيها اثني عشر صنفا هي : اليشب ـ والياقوت الأزرق ـ والعقيق والزمرد ، والجزع العقيقي والبقراني ، والزبرجد والياقوت الزعفراني ، والياقوت الحجري ، كما انهم وجدوا أوعية كثيرة ، وأشياء أخرى مثل القلانس المرصعة بالذهب ، والخواتم الرائعة والسيوف المحلاة ، والقمح ومختلف الحبوب.

وأمضى رجالنا الليلة هناك واحتاطوا حيطة شديدة بالحراسة وتيقظوا اعتقادا منهم أن المسلمين سيجددون القتال في اليوم التالي ، لكن الذي حدث هو أن هؤلاء تملكهم الرعب ففروا في الليلة ذاتها ولم يبق منهم أحدا ، وبعدما تحقق رجال استطلاعنا من هذا الأمر في اليوم التالي ، تعالت الأصوات فرحا بالشكر والمديح ، وهللوا للرب وأثنوا عليه لأنه جعل الآلاف المؤلفة من الأعداء يتبعثرون على يد جيش صغير من جند المسيح ، « ومبارك هو الرب الذي لم يسلمنا فريسة لأسنانهم» (المزامير: ١٢٤ / ٦)« وطوبى للأمة التي الرب الهها»(المزامير: ٣٣ / ١٢).

الم يتبجح هؤلاء المصريون ويتعهدوا بألسنتهم قائلين: « لنذهب الى القدس فنحتلها والفرنجة في داخلها ، وبعد أن نذبحهم جميعا ، لنهدم كنيسة القيامة التي يجلونها وبذلك نزيل أثرها ونمحو ذكرها الى أبد الآبدين » ، وهكذا لم تذهب رحمة الرب سدى ، بل حمل الفرنجة الابل والخيول بثروات المسلمين ، وعندما تعذر عليهم حمل الخيام والرماح والقسي والسهام الى المدينة أضرموها بالنيران ورجعوا مبتهجين الى القدس.

عودة بعض الأمراء الى ديارهم:

بعدما تم تحقيق هذه الانجازات ، رغب بعض الناس في العودة الى ديارهم ، وذلك بعد ما استحموا وتعمدوا بمياه نهر الأردن وجمعوا سعف النخل قرب أريحا ، في مكان عرف باسم حدائق ابراهيم ، وبعد هذا رحل روبرت كونت نورماندي وروبررت كونت الأراضي المنخفضة بالسفينة الى القسطنطينية ، ومنها الى فرنسا ومن ثم الى ممتلكاتهما، أما ريموند فعاد الى اللاذقية في سورية وترك زوجته فيها ، ثم أكمل سفره الى القسطنطينية وهو على نية العودة ، وحكم غودفري في القدس بموافقة الجميع ، وهي المدينة التي تعهد بحمايتها والحفاظ عليها ، وبقي معه تانكرد وآخرون.

حج بوهيموند وبلدوين

في تلك الآونة كان بوهيموند – وهو رجل عاقل مدبر مقدام – يحكم في انطاكية ، وفي الوقت نفسه حكم بلدوين اخو غودفري في الرها والبلاد المجاورة في الضفة الأخرى من نهر الفرات ، ولدى سماعهما بأخبار الاستيلاء على القدس على أيدي رفاقهما الذين تقدموهما ، علاهما السرور والبهجة ، وحمدا الرب وشكراه وصليا له ، وبما أن الذين تابعوا الرحلة الى القدس أصابوا النجاح وعمت عليهم الفوائد ، فقد توجب على هذين القائدين ورفاقهما مضاهاة الآخرين على الأقل بشجاعتهم وان تخلفوا عنهم سنة.

وقضت الضرورات تدبر حماية المدن والأراضي التي انتزعت من الترك بكل صعوبة ، وتوجب أن تكون هذه الحماية عالية العناية والحرص ، ذلك أنه كان بمقدور الأتراك ، بعدما اندحروا الى بلاد الفرس ، استعادة الأراضي بهجوم مباغت ، إذا ما تركت بدون

حماية ، ولو وقع هذااللحق الفـرنجة ضررا عظيمـا أثناء ركوبهـم الطريق الى القدس ومنها ، ولعل العناية الربانية هي التي قضت أن يتخلف بوهيموند وبلدوين ، ذلك انها ارتأت انهما سـيكونان اكثـر نفعا فيما سيحدث من مشاركتهما فيما حدث.

والمرات التي افرغ فيها بلدوين الجهد في قتاله ضـد الأتـراك في الجزيرة كثيرة ، وكثيرة ايضا رؤوس الترك التـى قـطعها ، فمـن المحال تقدير عددها ، وغالبا ما حارب بلدوين بقلة من رجاله جموعا حاشدة من الأعداء ، ولكن حالفه النصر بعون من الرب.

وعندما بعث بـوهيموند الى بلدوين يقتـرح عليه أن يقـوما مـع رجالهما بمتابعة الرحلة الى القدس لأنهما لم يكملاها ، أخذ بلدوين بعض الوقت في تدبير أموره و التحضير للسفر ، و فيما بلدوين على نية السفر سمع أن الأتراك اجتاحوا شطرا من بلاده ، فأجل سفره واخذ طريقه فورا مع حفنة من رجاله ، وزحف ضد الأتراك مـع أنه لم يكن قد جمع جيشه كله للرحلة الى القدس ، وفي أحد الأيام شاهد الأتراك راية بلدوين تقترب منهم ، وكانوا يظنون أنه قد بدأ رحلتـه الى القدس ، لذلك جلسوا مطمئنين في خيامهم ، وفوجئوا الآن فدب الرعب في قلوبهم ولاذوا فورا بـالفرار ، وبعـدما طـاردهم بلدوين مسافة قصيرة رجع رجاله القـلائل وتـابع تنفيذ المشروع الذي عزم على القيام به.

وبدأ بلدوين رحلته بالمرور عن يمين انطـاكية حتـى وصـل الى اللاذقية ، حيث اشترى مالزمه مـن مـؤونة للرحلة ، واعاد تعبـئة احمال دوابه ، ثم شرع بالرحيل في تشرين الثاني ، وبعدما مـزرنا بجبلة التقينا ببوهيموند في باذياس حيث كان قد ضرب خيامه.

وكان معه اسقف من بيزا يدعى ديمبرت ، وكان هذا الأسقف قد ركب البحـر الى مـرسى اللاذقية مـع بعض التـوسكانيين والطليان ، وقد انتظروا هناك ليسيروا معنا ، وكان هناك اسـقف

من أبوليا وأسقف ثالث برفقة اللورد بلدوين ، وقد قدرنا تعداد هذا الحشد من الناس الذين ربطتهم أواصر المودة بخمسة وعشرين الفا من الرجال والنساء فرسانا ورجالا.

وبعدما دخلنا الى بلاد المسلمين ، لم نستطع الحصول من السكان المعادين على الخبز أو اي غذاء اخر نقتات به ، وعانى الكثيرون من شدة الجوع ، وازدادت معاناة الخيول والبهائم من قلة الأعلاف ، وهكذا ساروا دون أن يتمكنوا من الحصول على الغذاء.

وعثرنا في الحقول المزروعة التي اجتزناها على نبات طازج تدعوه العامة باسم « قصب العسل » وهو شديد الشبه بقصب البوص ، واسمه مركب من العسل والقصب وعنه صدرت عبارة « عسل الخشب » كما اظن ، لأن هذا العسل يستخرج بمهارة من هذا القصب ، وقد مضغنا هذا القصب طوال الوقت بسبب مذاق العسل فيه ، لكن ذلك لم يخفف من جوعنا كثيرا .

وفي الحقيقة تحملنا ـ محبة بالرب ـ هذا العذاب وكثيرا من المشقات مثل الجوع والبرد والأمطار الشديدة ، واكل كثير من الرجال لشدة الجوع ، الخيل والحمير والجمال ، وقاسينا كثيرا وبشكل متواصل من البرد القارس والأمطار العاصفة ، حتى أن ثيابنا المبتلة كانت ما تكاد تجف في حرارة الشمس حتى ينغص عيشنا وابل جديد من المطر لأربعة أيام أو خمسة.

ولقد رأيت كثيرا من الناس ممن فقدوا خيامهم يموتون من شدة البرد بسبب الأمطار ، كما شهدت أنا فولتشر أوف تشارترز بنفسي في أحد الأيام كثيرا من الناس من الجنسين يلاقون حتفهم بسبب الصقيع وكذلك الكثير من الدواب ، ويطول الوصف ويمل السامع لوذكرنا جميع الآلام والمآسي التي عانى منها شعب الرب.

ولاقى عدد كبير من الفرنجة حتفهم على أيدي المسلمين الذين كمنوا لهم على الممرات الضيقة في الطريق ، وتم اختطاف بعضهم الآخر أثناء بحثهم عن الطعام ، ولقد كنت ترى فرسانا من أصل رفيع وقد غدوا رجالة لفقدانهم خيولهم ، كما كنت ترى الماعز والخراف التي انتزعت من المسلمين ، وقد هدها حمل الأمتعة وتشققت ظهورها وتحطمت من حمل الأثقال ، لأنه لم يبق من البهائم لحمل الأمتعة غيرها.

وحصلنا على الخبز مرتين لا ثالث لهما ، بعدما دفعنا ثمنا باهظا ، وكانت المرة الأولى في طرابلس والثانية في قيسارية ، ويتضح من هذا كله أن الانسان لا يصل الى الانجاز العظيم إلا بالبذل العظيم ، وكان وصولنا الى القدس حقا امرا جد عظيم.

وانتهت بهذه الزيارة الى القدس مهمتنا التي طال مداها ، وعندما أبصرت عيوننا قدس الأقداس ، التي طال شوقنا اليها ، امتلأت نفوسنا بشعور بالغبطة العارمة ، ومرات كثيرة هي التي تذكرنا فيها نبوءة داود إذ قال: « لنسجد عند موطىء قدميه » (مزامير: ١٣٢ / ٧) ، حقا شهدنا هذه النبوءة تتحقق فينا مع أنها كانت تتعلق بغيرنا ، وصعدنا حيث صعدت الأسباط ، أسباط الرب شهادة(مزامير ١٢٢ ٤)الى هذا المكان المقدس.

وبدأت الشمس يوم وصولنا الى القدس تنقلب بعد اكمال هبوطها الشتوي ، وشرعت بالصعود ، وبعد ما قضينا زيارتنا الى كنيسة القيامة والى هيكل الرب المجيد والى الأماكن المقدسة الأخرى ، ذهبنا في اليوم الرابع الى بيت لحم من أجل الاحتفال بميلاد الرب المسيح ، واردنا أن نسعف انفسنا بالصلوات تلك الليلة في المهد حيث وضعت الأم مريم المجيدة ابنها يسوع ، ثم رجعنا الى

القدس في الساعة الثالثة من ذلك اليوم ، بعدما فرغنا من الابتهالات المناسبة في الليلة المتقدمة.

ولقد سدت أنوفنا الروائح الكريهة المنتشرة حول أسوار المدينة من الداخل ومن الخارج ، والتي انبعثت من جثث المسلمين المتفسخة ، وهم الذين أبادهم رفاقنا عند احتلالهم للمدينة وكانت ما تزال مطروحة حيث تم الفتك بها.

وبعدما استجمينا نحن ودوابنا ، ونلنا قسطا من الراحة التي كنا في أشد الحاجة اليها ، وبعدما وقع اختيار الدوق والمقدمين الآخرين على ديمبرت السالف الذكر ليغدو بطريركا في كنيسة القيامة ، تزودنا بالمؤن ووضعنا أثقالنا على دوابنا وهبطنا نريد وادي نهر الأردن ، ولقد أثر بعض الجنود ، خاصة الذين تأخروا بالوصول الى القدس ، البقاء في المدينة ، و اختار الآخرون الذين كانوا قد وصلوا من قبل الذهاب معنا ، واستمر الدوق غودفري يحكم منطقة القدس بيد فولاذية كما فعل من قبل.

شعر :

وحدث في اليوم الثالث لما قبل منتصف أب ، وكان يوما مشؤوما ، أن مات اوربان المبجل ، بابا روما.

عودة كل من بوهيموند وبلدوين الى بلديهما:

في العام الف ومائة لتجسيد مولانا المسيح ، وفي اليوم الأول من ذلك العام ، حملنا جميعا سعف النخيل ، بعدما قطعناها في أريحا ، حسبما جرت العادة ، وبدانا رحلة العودة في اليوم التالي ٠

قد احب امراؤنا العبـــور بمـــدينة طبـــرية ، الواقعـــة على بحرها ، وطول هذا البحر الذي يتكون من مياه عذبة ـ ثمانية عشر ميلا و عرضه خمسة اميال ، ومن طبرية ارتحلنا الى قيسارية فيليب التي تدعى باللسان السوري بانياس ، وهي تقع على ســفح جبــل لبنان ، حيث ينبع جدولان يشكلان نهر الأردن ، ويجري هذا النهر عبر بحر طبرية الى البحر الميت.

ويذكر يوسفيوس ان عرض بحر طبرية اربعين ســتادا وطــولها مائة ، وكانت تعرف باسم جنساريت ويمر النهر من خــلالها ، ثــم يصـــب في البحـــر الذي يدعى البحـــر الميت ، لأنه (تـــكوين ١٩ / ٢٤ - ٢٩)لا يحتوي على أي شيء حي ، و يعرف ايضــا باسم بحيرة اسفلت ، و يعتقد انه ليس لها قــاع ؛ لأن مــدنا مثــل سدوم وعمورة قد انغمرت في جوفها

وكنت قد قـــرات في كتـــاب القـــديس جيروم عن النبـــي عاموس ، وقمــت بعناية فــائقة بتخمينات بشــأن الينابيع التـــي ذكرها ، واستخلصت أن دان كانت ضمن حدود بلاد يهوذا حيث تقع بانياس الآن ، ولأن قبيلة دان شيدت مدينة هناك ، دعوهــا بــاسم دان تيمنا بأسماء ابائهم ، ولهذا السبب أعتقد أن أحد هذه الينابيع كان اسمه دان وكان اسم الآخر الواقع على مقربة منه « جوز ».

ثم وصلنا الى مدينة حصينة اسمها بعالات (تدمر) ، وكان قــد شيدها سليمان ، وعمر حولها اسوارا عالية جــدا ، واطلق عليهــا اسم تدمر ، وتقــع هــذه المدينة على مســـيرة يومين مـــن أعالي سورية ، وستة أيام من باب اليون الكبرى (القاهرة) ومسيرة يوم من الفرات ، وقد سماها الاغريق باميرا ، و تكثر حولها الينابيع والآبار لكن المياه لا توجد في البادية.

وواجهنا هناك نحو أربعمائة من المقاتلين الترك كانوا قد جــاءوا من دمشق ، وقد ظنوا أننا مجهدون من التعب ومنهــكون ، ولهــذا

خيل اليهم انه بسهولة يمكنهم الحاق المضار بنا ، وفعلا كادوا أن يفعلوا ذلك لولا أن شاء القدر أن يحمي اللورد بلدوين مؤخرتنا في ذلك اليوم بكل عناية وحذر ، ولولا هذا لقتل من رجالنا عدد كبير ، وقد انعدمت فعالية قسيهم بسبب الأمطار ، لأن عادة أهل تلك البلاد أن يستخدموا الغراء في صنع هذه الأسلحة ، وفي تلك الأثناء قاد بوهيموند المقدمة ، وهكذا لم ينل العدو منا ـ بعون الرب ـ أي مغنم.

ثم اقمنا مخيمنا أمام البلدة المذكورة ، وفي اليوم التالي اقتربنا اكثر من البحر ، ومررنا أمام مدينتي طرطوس واللاذقية ، وفي اللاذقية وجدنا ريموند الذي كنا قد خلفناه هناك ، ولندرة الأغذية لم نجد ما نشتريه من المؤن لنقتات به ، و مع هذا تابعنا سفرنا غير اننا سارعنا ولم نتوقف حتى وصلنا الى الرها.

اسر الأمير بوهيموند:

وصل بوهيموند الى انطاكية اولا ، حيث رحب به أصدقاؤه وتلقوه بكل سرور وفرحة ، وقد مكث يحكم لمدة ستة أشهر كما فعل من قبل ، غير أنه عندما وصل في شهر تموز مع حفنة من رجاله الى مشارف مدينة اسمها ملطية ، التي كان قد عقد اتفاقا مع صاحبها الذي اسمه جبريل أن يسلمه اياها ، اقترب منه أمير اسمه الدانشمند ، وكان على رأس قوة كبيرة من الترك ، وسعى الى قطع الطريق عليه ، ولم يكن بوهيموند عارفا بوجوده.

وعلى مقربة من ملطية انقض هؤلاء الأشرار على بوهيموند ، وخرجوا عليه من كمين كانوا قد نصبوه له ، وطرحوه ، ولم يتجرأ رجالنا على القتال لقلة عددهم وفروا وتفرقوا بالحال ، لكن بعدما قتل الأتراك عددا كبيرا منهم واستولوا

على اموالهم ، ولم يكتف الاتراك بهذا بل إنهم قبضوا على بوهيموند وقادوه أسيرا،وعندما علم جماعتنا بأنباء هـذه الكارثـة مـن الذين فروا ، أصابهم حزن كبير ، وقام بلدوين كونت الرها فحشد كل من وجده من فرنجة الرها وانطاكية ، ثم انطلق بلا تأخر لملاحقة العـدو حيث سمع بوجوده ، وكان بوهيموند قبل وقوعه بـالأسر قـد قص خصلة من شعره ، وبعث بهـا الى بلدوين حسـب اتفـاق متقـدم بينهما و رجاه محبة بالرب أن يقدم الى نجدته على الفـور ، وكان الدانشمند يحاصر مدينة ملطية لكنه عندما سمع بتحرك بلدوين خشي مغبة ذلك ، فأوقف الحصـار ، وانسـحب خشـية مـن مواجهتنا ، وتمكن بذلك من العودة الى بلاده ، وأصابتنا خيبة أمل شديدة لذلك ، فقد طاردنا الأتراك لمدة ثلاثة أيام بدون جدوى ، وكنا نتوق للاشتباك معهـم بـالمعركة ، ثـم عدنا الى ملطية ، فسـلمها جبريل إلينا بعدما وطد أواصر الصداقة مع بلدوين ، و دخـل بلدوين إلى ملطية وخلف بعض رجاله فيها ثم عاد الى مدينة الرها ، واثـر هذا عاد رجال أنطاكية الى مدينتهم بعدما فقدوا قائدهم.

موت الملك غودفري:

ولم يستمتع بلدوين برغد العيش طويلا حتى وصل اليه رسول من القدس يحمل اليه خبر موت الملك قبل بداية شـهر آب بخمسـة عشر يوما.

شعر:

وفي مطلع السنة بعدما سقطت المدينة
أعطاك الرب أيها الدوق غودفري الحكم كتاج من التقـدير لكن لم يدم طويلا.

- ٢٧٨٦ -

تمتعك به لأن الطبيعة قضت بهلاكك.
وعندما دخلت الشمس الصاعدة في برج الأسد
صعدت أنت الى عليين مسرورا يحملك الملاك ميكائيل.